فى التاريخ، وليس فى السياسة

كل الذين وُلدوا فى الأربعينيات من القرن العشرين لم يُدركوا - عن قُرب - أهوال الحرب العالمية الثانية. نعم، سمعوا.. ولكن ليس من رأى كمن سمع!.. وقد يقول أحدهم - ولم يخطئ - : رب مبلَّغ أوعى من شاهد!.

وبما أن السنوات القليلة التى أعقبت تلك الحرب - التى راح ضحيتها نحو خمسة وثلاثين مليونا من البشر، وربما أكثر من ذلك - تُعتبر سنوات حاسمة فاصلة فى مجرى التاريخ والأحداث، فتلك نظرة عاجلة - لابد منها - على ما وقع فيها، وما ترتب عليها، مما لازالت له آثار واضحة فى حياتنا وحياة عالم اليوم، تمتد جذورها إلى تلك الفترة...

والنظر إلى التاريخ يتطلَّب «معايشة» الأحداث والوقائع، وليس الاكتفاء باسترجاع صورها ومشاهدها.. فلكل عصر، ولكل فترة أو حقبة من الزمن، ظروفها وعناصرها ومناخها، وعوامل كثيرة مؤثرة تتفاعل أو تتصادم، وحسابات وتقديرات تتوافق أو تتغاير، وكل ذلك خاص فقط بتلك الفترة أو الحقبة، ولا يمكن أن تتكرر جميعها أبدا بنفس القوة، ونفس الملابسات، فالشمس - كما يقال - لا تُشرق أبدا مرتين متشابهتين متطابقتين، وكذلك أمواج البحر، وتتابع المواليد، وحالات الوفاة.

المرحلة الأولى التى أعقبت تلك الحرب، تبدأ من استسلام ألمانيا النازية فى الثامن من مايو ١٩٤٥، ثم تلاه استسلام اليابان فى أغسطس من السنة نفسها، وتنتهى فى الخامس من يونيو ١٩٤٧، يوم أن ألقى الجنرال مارشال محاضرة فى جامعة هارفارد، وأعلن فيها المشروع الأمريكى الذى حمل اسمه، والذى

بمقتضاه تحصل أوروبا على مساعدات أمريكية مناسبة لإعادة إعمارها، والوقوف على قدميها.

فى قلب أوروبا توجد ألمانيا لعام ١٩٤٥. إنها لم تُهزم، ولم تخسر الحرب فقط، وإنما دُمرت تماما: البيوت، والمصانع، والمنشآت، وملايين المواطنين المدنيين الذين هلكوا، وملايين آخرون هربوا مشردين فى كل أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية، وملايين الجنود الألمان القتلى، مع تدمير أسلحتهم ومعداتهم، أو الذين وقَعوا فى الأَسْر.

إن الاجتماع الذى عقده رؤساء الحكومات: الأمريكية، والبريطانية، والسوفيتية فى يوليو ١٩٤٥، أسفر عن تشريح «جثة» ألمانيا النازية «الرايخ» إلى أربع مناطق محتلة (أدخلوا معهم فرنسا)، فكانت برلين ـ العاصمة ـ فى وسط منطقة الاحتلال الروسى مقسمة بين الدول الأربع. وأصبحت روسيا (الاتحاد السوفيتى) إمبراطورية ضخمة، بما يدور فى فلكها من دول شرق أوروبا الاشتراكية. وهى بدورها لم تَسلم من الدمار وضياع أرواح نحو عشرين مليونًا من أبنائها الروس. وظهرت روسيا فى ذلك الوقت، وكأنها المنتصر الحقيقى الوحيد فى الحرب، و«قيصرها» الرهيب جوزيف ستالين، ذو القبضة الحديدية، صاحب نظام صارم، تتلقى منه الأحزاب الشيوعية الحاكمة فى الدول الخاضعة لنفوذه، الأوامر والتعليمات.

فى محاولة من جانب ستالين لاستمالة فرنسا، تلقى رئيس الحزب الشيوعى الفرنسى تعليمات من موسكو بعدم معارضة الجنرال دوجول بحل منظمات الميليشيا، التى كانت ذات أثر فعال فى مقاومة الاحتلال الألمانى لفرنسا، على الرغم من قوة الميليشيا الشيوعية الفرنسية، وقدرتها على إحداث قلاقل شديدة، وربما ثورة دموية.. فقبل نهاية الحرب، كانت فرنسا فى حالة يرثى لها: تم إعدام نحو نصف مليون مواطن فرنسى، بحجة «التطهير»، وامتلأت السجون والمعتقلات بأكثر من مائة ألف فى انتظار المحاكمات أمام محاكم استثنائية.

وفقدت فرنسا نحو ٤٥٪ من ثروتها القومية، سواء بالمصادرة، أم التدمير خلال الحرب. ومن بين عشرة ملايين منزل، كانت قائمة فى فرنسا قبل الحرب، دُمر ٤٤١ ألف منزل تدميرا كاملا، ومليون ونصف تدميرا جزئيا. ومن بين ١٧ ألف قاطرة سكك حديدية، تَبَقَّى بعد الحرب ٢٩٠٠ قاطرة صالحة للاستعمال. تلك بعض الأمثلة... أما الإنتاج الصناعى والزراعى، فقد بلغا الحضيض. هذا.. غير هلاك نحو نصف مليون جندى فرنسى، واحتجاز أكثر من مليون ونصف فى السجون ومعتقلات الأسرى، وانخفاض عدد المواليد أثناء سنوات الحرب الخمس بمقدار مليون وربع مليون، قياسا على ما كان قبل نشوب الحرب.

أيضا، واجهت بلجيكا، وهولندا، ودول الشمال الأوروبى موقفا صعبا. أما بريطانيا، التى عزلت قائد الحرب ونستون تشرشل، وأحلت مكانه زعيم العمال «اتلى»، فقد اكتشفت أن «النصر» فى الحرب ما هو إلا خداع وزيف!. إنها فقدت معظم أسطولها التجارى، الذى جعلها لعشرات السنين سيدة بحار العالم. كما أنها أضاعت تفوقها التجارى العالمى، واحتياطها الضخم من الذهب، واختل بشدة توازنها الاقتصادى، فمستعمراتها - بخيراتها السابقة - تتخلى عنها واحدة بعد الأخرى، وتحصل على الاستقلال. وأُجبِرت على الاعتراف باستقلال مصر ومحمياتها فى الشرق الأوسط، واستعدت للاعتراف باستقلال الهند. أصبحت «الأسد العجوز». وكان ذا مغزى أن تطلب من الولايات المتحدة الأمريكية أن تأخذ بيديها من ورطتها فى اليونان. لقد شعر المواطن البريطانى بوطأة الكارثة.

عقب تجربة القنبلة الذرية الساحقة الماحقة فوق هيروشيما، استسلمت اليابان، وسقطت فى واقع الأمر تحت حماية الولايات المتحدة، وتراجع الرجل الأبيض الأوروبى من كل أنحاء آسيا. واستمراراً لسياسة إنهاء الاستعمار التى تبناها الرئيس الأمريكى روزفلت، ثم ترومان من بعده، أجبرت الولايات المتحدة هولندا على التخلى عن إندونيسيا، وفى الوقت نفسه لم تسترح لمحاولات فرنسا فى بسط نفوذها على الهند الصينية.

كان من العسير الاقتناع بأن فرنسا المنهوكة القُوى بكل أشكالها تستطيع الاحتفاظ بمستعمرة بعيدة كل البعد عن أراضيها. ومع ذلك.. كان من رأى بعض المتحدثين باسم الزعيم الوطنى ـ الشيوعى الفيتنامى «هو ـ شى ـ منه» أن تحتفظ فيتنام بحكم ذاتى، وتظل قائمة فى إطار الاتحاد الفرنسى، لكن معارضة المتشددين داخل فيتنام أطاحت بالفكرة وبالاتفاقيات المتعلقة بها، التى شُرع بالفعل فى إعدادها. فى نهاية عام ١٩٤٧، انضم «هو ـ شى ـ منه» إلى المقاومة، واشتعلت نيران الحرب.

أما الصين المجاورة، فهى مقسمة حينذاك بين الوطنيين، بزعامة شيانج كاى شك، والشيوعيين بزعامة ماوتسى تونج. وكان الأمريكيون يداعبهم فى عام ١٩٤٦ حلم ظهور «الصين القوية الديمقراطية»، فأرادوا أن يحل الوفاق بين شيانج وماو. وسرعان ما تبدد هذا الحلم، وظهرت العداوة بين الفريقين الصينيين، والتصادم فى منشوريا.

فى ذلك الوقت.. كانت الهند تغلى وتموج حول موضوع تحقيق الاستقلال عن بريطانيا.. فالمسلمون لم يرغبوا فى المخاطرة ـ بعد الاستقلال عن بريطانيا ـ للخضوع للغالبية السكانية الهندوسية، ورفضوا المشاركة فى اجتماعات الجمعية التأسيسة، واندلعت مصادمات وحشية دامية بشعة. وفى عام ١٩٤٧ اتفق الطرفان على التقسيم.

فى الطرف الشمالى الغربى لآسيا اندلعت معارك دامية أخرى.. فقد أعلنت إنجلترا أنها تعِد اليهود «بسكن Home» أو وطن فى فلسطين.. فلما اضطرت إلى التخلى عن هذا الموقع من الشرق الأوسط، لم تحدد طبيعة ولا شكل هذا السكن (الوطن). وفى عام ١٩٤٧ قررت لجنة من هيئة الأمم المتحدة ـ رغم المعارضة الشديدة من الدول العربية ـ إقامة دولة إسرائيل المستقلة على الأراضى العربية الفلسطينية. وتحت ضغط الملايين من الناخبين الإسرائيليين الأمريكيين، أعلن الرئيس الأمريكى ترومان موافقته على إنشاء تلك الدولة، دون نظر، أو اعتبار لحقوق العرب والفلسطينيين، وحجمهم، أو احتياجاتهم!.

فى بداية السنة نفسها ـ ١٩٤٧ ـ واجهت فرنسا بداية متاعب متصاعدة فى امبراطوريتها فيما وراء البحار.. ففى فيتنام نشطت معارك المقاومة. وفى مدغشقر اندلعت الثورة ، وفى مراكش أعلن السلطان محمد الخامس انتهاء الحماية.

تفكك التحالف الشيوعى ـ الاشتراكى داخل فرنسا. وفى الجمعية الوطنية التشريعية (البرلمان الفرنسى) صوت الوزراء الشيوعيون ضد الحكومة، التى هم أعضاء فيها، فطُردوا من الوزارة. وفى إيطاليا سُحبت أيضا المناصب الوزارية من الوزراء الشيوعيين..

وهكذا بدأت أوروبا الغربية فى مناهضة الخطر الشيوعى الذى يتهددها، بينما على الجانب الآخر.. تزايد تقارب وتضامن دول التكتل السوفيتى، فقرر الرئيس الأمريكى ترومان أن يتدخل. وبموافقته، قدم وزيره الجنرال «مارشال» عرضا بمساعدة ضخمة لأوروبا. هذا العرض يُعتبر تحولا كبيرا فى مجرى التاريخ فى فترة ما بعد الحرب. إنها مساعدة كبرى للدول الأوروبية جميعها، ماعدا الاتحاد السوفيتى. كما لم توافق على تلقى تلك المساعدة.. الدول الأوروبية الدائرة فى فلك الاتحاد السوفيتى، ماعدا تشيكوسلوفاكيا، لكنها بإنذار من موسكو، سحبت موافقتها على تلقِّى المساعدة.

وتَقَرَّرَ أن الدول المستفيدة من تلك المساعدة، عليها أن تتضامن فيما بينها، لتتقاسم هذه المنحة الأمريكية، التى بلغت ٢٢,٤ مليار دولار (بقيمة ذلك الوقت)، والمقدمة فى شكل مواد ومعدات عينية. وكان ذلك يتضمن أن ألمانيا ليست خارج نطاق الدول المستفيدة منها.

كان رد فعل موسكو هو إنشاء «الكومينفورم». وفى إيطاليا وفرنسا أثارت الأحزاب الشيوعية سلسلة من الإضرابات والشغب، إلا أن الشيوعيين الفرنسيين واجهوا عنصرا جديدا منظما: «تجمُّع الشعب الفرنسى» الحزب الذى أنشأه الجنرال دوجول، الذى أحرز نجاحا كبيرا فى الانتخابات المحلية. رفع

الشيوعيون فى إضراباتهم شعار: «يسقط مشروع مارشال»... لكن، فى نهاية عام ١٩٤٧، كانت إعادة بناء وإعمار أوروبا قد بدأت فى الدوران والتسارع.

فى عام ١٩٤٨:

وقع انقلاب شيوعى فى براج (تشيكوسلوفاكيا). وفى الصين أحرز الشيوعيون «الحمر» سلسلة من الانتصارات. وفى فيتنام استمرت المعارك الحربية بلا نتيجة حاسمة. وفى الهند اغتيل غاندى. وفى فلسطين تتفوق إسرائيل عسكريا.. وفى اليونان تندلع الحرب الأهلية. وفى يوغوسلافيا ينفصل تيتو عن الاحتواء السوفيتى. وفى بروكسل (بلجيكا) تعقد اتفاقية تعاون عسكرى بين بلجيكا، وبريطانيا، وفرنسا، ولوكسمبورج، وفى ألمانيا الغربية تتم إصلاحات نقدية تدعم الاقتصاد القومى. وتبدأ «الحرب الباردة» بحصار الروس لبرلين فى ألمانيا الغربية، فتلجأ أمريكا وبريطانيا إلى إمداد المدينة بمواد الغذاء واحتياجاتها الضرورية المعيشية، عن طريق جسر جوى منتظم. وفى العام نفسه يعاد انتخاب ترومان رئيسا أمريكيا لفترة ثانية.

فى عام ١٩٤٩:

حدث نجاح كامل لمشروعات مارشال. إنها المرحلة الثانية من فترة مابعد الحرب. وفى العام نفسه يتم الاتفاق على حلف شمال الأطلنطى: (NATO)، ويُرفع الحصار عن برلين، ويبدو نجاح جديد للشيوعيين فى الصين. وتم وضْع دستور لألمانيا الفيدرالية (الغربية)، وانتُخب أديناور مستشارا. وفى العام نفسه يحدث استقرار ماو فى بيكين، ولجوء شيانج إلى فرموزا (تايوان)، وتحوُّل الصين ذات الثمانمائة مليون إلى الشيوعية، حيث اعتبر ذلك حدثا بارزا فى التاريخ الحديث. كما أعلن الروس امتلاكهم للقنبلة الذرية.

عام ١٩٥٠:

* الولايات المتحدة تصنع القنبلة الهيدروجينية.

* قيام «الوحدة الاقتصادية للفحم والصلب» بمشاركة فرنسا، وألمانيا الغربية الفدرالية وبلجيكا، ولوكسمبورج، وهولندا، ورفضت بريطانيا الانضمام إلى هذه الوحدة، وكان ذلك بمثابة مولد «أوروبا المصغرة».

فى آسيا ـ بتأثير الروس ـ: تهاجم كوريا الشمالية عسكريا كوريا الجنوبية.

وبتأثير من الولايات المتحدة الأمريكية، تدين الأمم المتحدة العدوان الكورى، وبناء على ذلك.. ترسل واشنطن قوات قتالية، بقيادة الجنرال ماك آرثر، للدفاع عن كوريا الجنوبية.

* فى بلجيكا:

* الملك ليوبولد الثانى يتنازل عن العرش.

* الإعلان عن مشروع «الوحدة الأوروبية للدفاع».

* هزائم فرنسية فى الهند الصينية.

* الصين الشيوعية بقيادة ماو تعلن عن مساعدتها لكوريا الشمالية.

* يطلب ماك آرثر من ترومان السماح له باستخدام السلاح النووى فى كوريا، لكن الرئيس الأمريكى يرفض بشدة، تجنبا لحرب عالمية ثالثة، لابد فيها من استخدام الأسلحة الذرية، ثم يقع صدام بين ترومان وماك آرثر.

عام ١٩٥١:

* القوات الأمريكية تصحح الوضع فى كوريا.

* والجنرال الفرنسى «دولاتْر» يحقق إنجازات وقتية فى الهند الصينية.

* فى مراكش (المغرب):

* تمرد زعماء القبائل فى الجنوب على السلطان محمد الخامس.

* استدعاء ماك آرتر إلى واشنطن.

* توقيع اتفاق السلام من اليابان.

* فرنسا فى مواجهة الشيوعيين بالهند الصينية، والولايات المتحدة تمد القوات الفرنسية هناك بالأسلحة والمعدات.

* الانتخابات التشريعية فى بريطانيا يفوز فيها المحافظون، فيعود تشرشل إلى رئاسة الوزراء.

عام ١٩٥٢:

* وفاة جورج السادس ملك بريطانيا.

* وفاة الجنرال الفرنسى «دولاتْر».

* بفضل مشروع مارشال، نهض الاقتصاد الأوروبى الغربى، خاصة فى ألمانيا.

فى تونس: الزعيم الحبيب بورقيبه يعلن انتهاء الحماية الفرنسية.

فى إيران: تأميم شركة البترول الأنجلو - إيرانية.

فى كينيا: جماعة الماو ماو تعلن الثورة على الإنجليز.

فى مصر: حركة وطنية تطرد الملك فاروق.

فى الأرجنتين: وفاة إيفا بيرون زوجة الرئيس جوان بيرون، والمحبوبة بشدة من غالبية الشعب.

فى الولايات المتحدة:

* الجنرال أيْزنهاور مرشح الجمهوريين يفوز فى انتخابات الرئاسة.

* «ضربة» صامتة للاتحاد السوفيتى، حيث أعلنت واشنطن عن نجاح تفجير أول قنبلة هيدروجينية.

عام ١٩٥٣:

* موت ستالين فى ظروف غامضة، أثارت تساؤلات كثيرة.

* خروتشيف يصبح سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى السوفيتى.

* عفو عام فى روسيا ـ على نطاق واسع ـ عن جماعات كثيرة من المعتقلين فى سيبيريا، وإعدام بريا مساعد ستالين المقرب.

* الاتحاد السوفيتى بدوره يمتلك القنبلة الهيدروجينية.

* إضرابات متلاحقة فى فرنسا.

* فى مراكش (المغرب): فرسان الجلوى تسقط السلطان محمد الخامس.

* الكومونولث البريطانى يفقد الترابط.

* عزل ونفْى شاه إيران، ثم عودته إلى الحكم.

هكذا.. انتهت الحرب العالمية الثانية، ولم تنته المتاعب والأزمات والتصادمات، والحروب الصغيرة، والمعارك الدامية، والضحايا بالمئات والآلاف.. والسجناء السياسيون وسجناء الفكر بالآلاف وعشرات الآلاف.. سلسلة لا نهاية لها من الصراعات الفكرية والمادية، والجسدية، ظل يستخدم فيها كل سلاح ووسيلة، بما فى ذلك الإرهاب، وغسل المخ، والدعايات المشوهة والمشوشة .. ليبقى الإنسان دائما ذئبا للإنسان. والخطير فى الأمر، أنه أصبح يملك أسلحة متزايدة ومتطورة، تضاعف من قدرته على الافتراس والتمزيق بمخالبه وأنيابه، ولكن لم ينقطع الأمل فى الغد الأفضل، والصلاح فى المستقبل.. لسبب بسيط: أن غالبية الفئات التى تتكون منها المجتمعات والشعوب تنشد العدل والسلام، وتسعى سعيها فى الحياة، ولا تفكر فيما يؤرق الشغوفين بالعراك والحروب، وفيما يؤجج أطماع الجشعين والحاقدين والمفْسدين.. هكذا التاريخ يعلِّم...!.

نعمة معطلة

هيا نحلم حلما من أحلام اليقظة.. ونتمنى شيئا.. ولم لا؟!.

على الأقل نعيش لحظة، أو ساعة سعيدة.. ولو وهْمًا .. ومجانا. هل نفكر فى زعامة، أو منصب ضخم فخم.. لا يقل عن رئاسة الأمانة العامة للأمم المتحدة مثلا؟!. شىء فعلا براق عملاق، يجلب الشهرة، ويتيح حرية الثرثرة والتنقل الرغيد المريح.. لكن ـ للأسف ـ ليس مأمونا: فقد تأتى النهاية مَهيضة مهينة.

ولماذا لا تكون ثروة هابطة من الفضاء، أو منبثقة من جوف الأرض بالملايين، أو حتى بالمليارات.. فهذا عصر المليارات التى لم يكن أجدادنا الأقربون يعرفون لها عدا.. لكن أيضا، وا غماه!.. فلا أمان !، إذ قد تضيع فى دهاليز بنك يعلن فجأة إفلاسه، أو تختفى فى سروال شركة استثمار لعوب، ويذهب الجَمل بما حمل.

إذن، لا يجب التفكير فيما يستجلب الهم والألم، فلدينا منهما ـ والحمد لله على كل حال ـ الكثير. ولماذا لا نحلم ـ ونحن فى غاية اليقظة ـ حُلما «بسيطا» يمكن تحقيقه، ولا تُشقينا عواقبه؟.

لو تخيل أحدنا نفسه ـ وقد انقشعت غيوم ورسوم ـ متجولا على سَجِيته من السنغال وموريتانيا والمغرب، ثم عبر الشمال الأفريقى إلى الشام، وتركيا، ثم العراق، والجزيرة العربية، ومنها ينتقل إلى إيران وأفغانستان وأوزباكستان، ثم يتجه جنوبا إلى باكستان، فماليزيا، وسنغافورة، وإندونيسيا، ويعود مرورا بملاديف، وجزر القمر، وتانزانيا، ومنها إلى جيبوتى، والصومال، فالسودان،

لينتهى به الطواف فى القاهرة، بعد جولة عمل، أو سياحة، أو تعليم، أو تجارة، أو صناعة... بلا عوائق، ولا ضوائق. ورحم الله ابن بطوطة الذى ضرب لنا المثل !.

إن ما بين شعوب هذه البلاد ـ على اتساعها وتباعدها ـ من أُلفة، وروابط، وعقيدة، وتاريخ، وثقافة، وحضارة مشتركة، ثم لغة عربية تسود معظمها، وليست مجهولة فى الباقى منها.. كل ذلك يجعل الحُلم نعمة كبرى، ورغبة عظمى، ما يعطلها ويقيم الحواجز والعقبات دون تحقيقها، إلا مشاكسون، متربصون، ناقمون، والحالمون نيام!.

ومن فضل الله تعالى أنى عبرتُ هذه الجولة على فترات، من مدينة طوبَى وقرى السنغال وشواطئ غينيا، إلى غابات إندونيسيا، حيث يتردد من عدة جهات قبيل الفجر صوت المرحوم الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ـ أو من يقلده ـ فى تلاوة لآيات القرآن الكريم، يزيدها ترجيع الأصداء جلالا وخشوعا. وفى كل تلك البلاد، يلقَى المرء من شعوبها، من الأفراد العاديين المؤمنين الطيبين، كل الترحيب والمودة التلقائية المتفائلة.

وتعجب إذ تتابع الجهود «الجبارة» المتعثرة التى تُبذل فى أوروبا لجمع بلدانها وشعوبها على «كلمة سواء»، أو وحدة عرجاء!، وهى مقطوعة الوصل، متباعدة الأصل، متنافرة الثقافة، متبادلة العداوة، تُظهر الوُدَّ، وتُخفى الحقد، تبغى إزالة التفرق، وكل منها يدَّعى لنفسه التفوق.. فكيف بالله؟، إلا إذا كان الأمر مثل «زواج» المنفعة : أساسٌ واهٍ، وأَجَل متناه، وغُرمه يزيد على غُنْمه.

ولنضرب مثلا: ألمانيا وفرنسا، اللتان تتزعمان ـ أو تَزعمان ـ قيادة تلك الوحدة الأوروبية، وتحقيقها بوسيلة أو بأخرى. منذ القرن الثانى عشر وفرنسا ـ الدولة القوية الموحَّدة ـ تنظر بازدراء واشتهاء إلى تلك الإمارات التى كَوَّنت فيما بعد ألمانيا (كان عدد تلك الإمارات عام ١٧٨٠ ثلاثمائة وأربعين إمارة أو دُويلة!!).

وكان يحْلو لفرنسا دائما غزو تلك الإمارات، أو شراء التحالف معها بالمال، أو التجارة، أو الزواج: زواج ملوك ونبلاء فرنسا من بنات حكام تلك الإمارات. وفى الفترة بين أوائل القرن السابع عشر إلى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠) حدثتْ بين فرنسا وألمانيا ٢٣ مواجهة مسلحة، دارت معظم معاركها على الأراضى الألمانية. وظلت المشاعر الألمانية إزاء فرنسا متأرجحة بين الكراهية والإعجاب: الإمبراطور فريدريك الثانى ملك بروسيا يكتب رسائل مستفيضة - بعضها على مستوى عال من الفكر والفلسفة - إلى فولتير، ويتفوق عليه أحيانا فى بعضه آرائه وملاحظاته، أو تعليقاته.

الملوك البافاريون يشيدون قصورا فاخرة على غرار قصر فرساى الفرنسى الشهير، وقصور فرنسية أخرى، إلا أن غزو الملك الفرنسى الشهير لويس الرابع عشر لأراضى البلاتينا، هو الذى أطْلق الشرارة لتوحيد ألمانيا، بإثارة الشعور القومى بين سكان الإمارات والدويلات، ثم كان للثورة الفرنسية آثارها المتضاربة الواضحة على الجانب الآخر من نهر الراين.. فلما غزا الإمبراطور نابوليون بجيوشه بروسيا (أساس ألمانيا فيما بعد)، اشتد الغيظ بالموسيقار الألمانى الكبير بيتهوفن، وكان معجبا بنابوليون، فيمحو بعصبية عنوان السيمفونية البطولية التى كان كتب بخطه إهداء إلى الإمبراطور على نوتتها يقول: «إلى رجل عظيم».

ثم يأتى الفيلسوف «فيخت»، المغالى فى الوطنية، ويعلن تفوق اللغة الألمانية على كل لغات أوروبا - ومنها الفرنسية - وبالتالى تفوق الفكر الألمانى. وبعد ذلك تذهب النازية بعيدا فى هذا الاتجاه، وتؤكد تميز واستعلاء الجنس الألمانى، وذلك فى مواجهة الدعوة الفرنسية إلى الثورية العالمية.

كانت هزيمة فرنسا من بروسيا عام ١٨٧٠ ضربة قاسية. ويدخل البروسيون باريس فاتحين، وتفقد فرنسا منطقتى الألزاس واللورين الغنيتين بالمعادن والثروات، ويحقق بسمارك وحدة ألمانيا، ويُحرز نجاحات اقتصادية للرايخ

الألمانى المتحد.. فلما جاءت مواجهة العصر عام ١٩١٤ ـ بالحرب العالمية الأولى ـ كانت النتيجة: هلاك نحو مليون ونصف مليون فرنسى، ونحو مليونين من الألمان.

فرحت فرنسا بالانتصار على ألمانيا، وتغافلت عن الخراب والدمار، وهلاك هذا العدد الكبير من شبابها ورجالها من الأبناء والأزواج، فكثرت الأرامل والثكالىَ (مع ملاحظة أن تعداد ألمانيا فى ذلك الوقت كان ٦٢ مليونا، بينما فرنسا ٤٠ مليونا فقط). واعترفت ألمانيا مُرْغَمَة «بمسئوليتها عن الحرب».

ولم تمض سنوات عشرون، حتى أشعلت ألمانيا نيران الحرب العالمية الثانية، واجتاحت معظم أوروبا، وغزت روسيا، وكانت فرنسا من أوائل ضحايا ألمانيا، فقد دخلها هتلر عام ١٩٤٠ فى معركة لم تستغرق أكثر من بضعة أيام، قاسمة، قاسية، مُذلة.

لكن الجنرال دوجول يعلن فى شجاعة وعزم: «لقد أُهينت باريس، ولسوف تتحرر باريس». واستطاع هذا الرجل الفذ أن يمحو ـ بمهارة ـ من ذاكرة الفرنسيين عار الهزيمة والتعاون مع الغازى المحتمل.

خرجت ألمانيا من الحرب مطحونة مهزومة سياسيا، وعسكريا، وصناعيا، وأخلاقيا، فلجأت إلى إعادة بناء الصناعة والاقتصاد، وإثارة حماس أوروبا بأجمعها فى هذا المجال.

وعندما زار دوجول ألمانيا ١٩٦٢، حَيَّا «الشعب الألمانى العظيم» واستُقبل المستشار الألمانى اديناور ـ باعث ألمانيا من حطام الحرب العالمية الثانية ـ استقبالا حافلا فى فرنسا. ومع الأيام، تتصاعد المواجهة الحقيقة بين «القومية الفرنسية العتيدة» و «القوة الاقتصادية الألمانية المخيفة».

هذا مجرد مثال.... واحد، فهل تتوحد أوروبا فى القريب كما يزعمون؟، وهل نظل نحن شراذم متفرقين..؟. مسألة تحتاج إلى نظر، عند من يدرك الخطر.....!.

عالم مجنون... مجنون.... ومحبوب!

مليون حذاء يلقيها فى البحر المصطافون على شواطئ المحيط الأطلنطى كل عام، عن غير قصد بالطبع، لكنها تنزل إلى الأعماق، وحتى أربعة آلاف متر فى القاع!.

«سفينة الصحراء» لم يعد تعبيرا أدبيا بليغا، كناية عن الجمل، بل أصبحت اليوم فى الصحراء سفن حقيقية، كانت فى يوم ما تشق مياه بحر آرال فى وسط آسيا (جنوب روسيا)، لكن جف الآن معظمه، خاصة فى الجنوب. وعاد من المألوف رؤية عشرات ومئات السفن والقوارب مغروسة فى رماله، التى كانت من قبل جزءا من مسطحه المائى، وانقرضت الأسماك التى تعيش فيما تبقى به من مياه، لم يبق من أنواعها سوى ٣٨ نوعا، وقد كانت ١٧٨.

فى السنوات العشرين الأخيرة أصيبت شواطئ بحر الأدرياتيك (بين إيطاليا وجمهوريات يوغوسلافيا السابقة واليونان) بنوع جديد من «السرطان» المهلك، يغطى مساحات ضخمة من المياه. وهو نوع من الطحالب المتوحشة، ظهر بوفرة، نتيجة ارتفاع نسبة تلوث المياه، وزيادة نسبة الفوسفات والكيماويات والمخلفات. والشىء نفسه حدث فى مناطق من شواطئ بريطانيا، وشبه جزيرة اسكندنافيا (السويد/ النرويج)، وعند البندقية (فينيسيا)... هذه الطحالب تحجب ضوء الشمس عن الأحياء التى تعيش تحتها داخل البحر، فتقتل الحياة، وتمنع الأوكسجين من الوصول إلى المياه. إنها طحالب لا تلتصق بالصخور دائما. هى كالخلايا السرطانية التى تتكاثر بشدة فى الدم، فتفسد البيئة.

كلمَا أشعل أحدنا عود ثقاب (كبريت) أو نقطة وقود (فى موقد، أو ولاعة،

أو سيارة. . . .) انطلق غاز كربونى خانق. الغابات هى الرئة الطبيعية للأرض: تنقى الجو، وتغذيه بالأكسجين. ولكن الغابات التى كانت تشغل ١٦٪ من سطح اليابسة فى أول القرن العشرين، أصبحت فى نهايته ٦٪ فقط!، فأصبح فوق رؤوسنا «غطاء» كربونى له آثاره المدمرة.

وطبقا للمعدلات الحالية من حيث الارتفاع المتزايد فى درجة حرارة الأرض، واشتداد العواصف، فإنه فى عام ٢٠٥٠ سيزيد متوسط ارتفاع درجة الحرارة على كوكبنا نحو خمس درجات. ومعنى ذلك أن مستوى مياه البحار والمحيطات قد يرتفع فى نهاية القرن الحادى والعشرين بمقدار مترين، لذوبان كميات من ثلوج القطبين. وهنا تكون الكارثة: ستختفى جزر ضخمة بأكملها، مثل مالديف، وربع مساحة دولة مثل بنجلادش، ودلتا النيل شمال مصر، ومدن مثل: نيويورك، ومارسيليا، وتصل مياه بحر المانش إلى مدينة باريس، فتغرقها وما حولها!.

ومع زيادة التركيز المستمر للغاز الكربونى فى الغلاف الجوى وغازات أخرى، تتأثر درجة الحرارة على سطح الأرض بارتداد السخونة الصاعدة إلى الطبقات العليا، وعودتها ـ أو كمية منها ـ إلى الأرض. وكذلك يحتجز الغلاف الجوى كميات زائدة من الأشعة تحت الحمراء المنبعثة من الأرض إلى الفضاء، فتزداد سخونة الأرض. هذه السخونة يذهب معظمها إلى البحار والمحيطات، فتمتصها المياه، وتفقدها ببطء. وتظهر التأثيرات المضرة نتيجة ذلك بعد فترة. ولذا. . فإن أبناءنا وأحفادنا سيتأثرون بعوامل جوية، وتغيرات طقسية غير التى نشهدها نحن الآن. سيكون الجو أكثر سخونة، والأرض بصورة عامة أكثر حرارة، ومعدلات سقوط الأمطار سترفع مستوى سطح البحر.

والمشكلة السكانية ـ الزيادة المستمرة فى أعداد السكان على المستوى العالمى ـ لا يجب النظر إليها من حيث الأعداد والتوزيعات البشرية فى المناطق المختلفة من المعمورة، بل الأخطر من ذلك. . . تحول أكثر من نصف سكان العالم ـ

نحو ثلاثة مليارات ـ وهم شعوب العالم الثالث فى المدى القريب، إلى مجتمعات استهلاكية. ولنأخذ مثالا: سكان الصين اليوم ـ وهم نحو مليار وربع المليار ـ يستخدمون عادة الدراجات فى التنقل الشخصى. وقريبا، وقريبا جدا، سيتطلعون إلى امتلاك سيارات، مثل إخوانهم فى الدول الصناعية، والدول ذات المستوى الاقتصادى المرتفع، وحينئذ ستزداد نسبة تلوث الجو بمخلفات احتراق الوقود، ومخلفات المصانع المنتجة للسيارات، ومخلفات المواد التالفة من السيارات، كالمعادن، والزيوت، والأحماض، والبلاستيك، والإطارات... هذا من صناعة واحدة.. فما بالنا بعشرات الصناعات الاستهلاكية الأخرى!.

ومشكلة الحروب وأسلحتها، بما فيها الكيمائية والذرية، ومشكلة التعليم والثقافة، أن الاتجاهات التعليمية والثقافية فى معظم بلاد العالم اليوم تنمو نحو التعلق بأنماط استهلاكية متزايدة ومتنافسة، ولابد أن يعرف الكبار ـ وينقلوا ذلك إلى الصغار ـ أن لكل شىء ذِرْوة يجب أن يقف عندها، وحدودا من الأفضل للجميع ألا يتجاوزها، ليس فقط من أجل المحافظة على الثروات البيئية الطبيعية، وإنما أيضا للمحافظة على مستوى مناسب للبيئة الطبيعية، وأيضا للمحافظة على مستوى مناسب من الحياة الصحيحة السليمة لنا، ولمن بعدنا. وليس الأمر قاصرا على القدرة الإنتاجية، والقدرة الشرائية، وحسب.. وإنما قد يكون من الأفضل للمنتج وللمشترى التوقف عند حد معين، وقاية من أخطار لا يمكن علاجها، أو الوقاية منها، ومن أخطار يستحيل فيما بعد إصلاحها.

إن الكثير ـ وربما الكثير جدا ـ من إنجازات الصناعة المعاصرة، التى تزيِّن لها الدعاية والإعلانات المشوقة الملحة، يمكن الاستغناء عنه، دون أن تفقد البشرية قليلا ولا كثيرا من مقومات المعيشة الصحية الكريمة.

إننا ندمر حياتنا، بيئتنا، مياهنا، هواءنا الجوى، طعامنا، صحتنا، أجسامنا، طاقاتنا، وأفكارنا وضمائرنا.. ندمر ذلك بأيدينا، بأنفسنا، بإغراء المنتجين

ليزدادوا ثراء (ولا منجاة لهم فى النهاية من آثار التدمير)، وبإغراء المعلنين الذين لا يهمهم إلا الكسب، وزيادة الربح (وهم أيضا ليسوا بمعزل عن الآثار المهلكة).

لقد حان الوقت ـ ولعله جاء متأخرا ـ أن يؤمن سكان الأرض، المتقدم منهم والمتأخر، بأن «خير الأمور الوسط»، وبأن «القليل الدائم خير من الكثير المنقطع»، وبأن «ما زاد عن الحاجة، فهو عبء»، وأن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان واعيا حصيفا، حينما قال لجابر بن عبد الله: «ماذا دهاك يا جابر.. أو كلما اشتهيتَ اشتريْت؟». وحينما سئل: لماذا لا يتخذ لنفسه طعاما شهيا، وفراشا وثيرا، وملبسا ناعما، وفى استطاعته أن يفعل، وهو أمير المؤمنين؛ قال فى حسم، ومن غير تكلف: أخشى أن أكون ممن يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: ﴿**أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها..**﴾[1].

إن الأمر جد خطير، ويمس حياة كل إنسان على الأرض، وكل من سوف يولد فى الغد. وبين أيدينا هذا الحوار الذى جرى مع رائد الفضاء الفرنسى «جان ـ لوكريتيان» الذى اشترك مع رواد الفضاء الروس فى السفينة الفضائية «مير»، التى أمضت فى محطتها المدارية حول الأرض خمسة وعشرين يوما فى شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٩٨٨.

* ماذا يقول رائد فضاء مثلك عن أرضنا المريضة المسكينة؟.

إن التلوث مرتبط بأزمة الحضارة التى نعيشها فى أواخر القرن العشرين. وهى حقا أزمة هائلة، تتنوع أشكالها: المخدرات، الإيدْز (انهيار المناعة فى الجسم)، الهجرات غير المنضبطة، التضخم السكانى، التلوث، فساد البيئة... إلخ. إن القائمة طويلة، وأزماتها ومشاكلها فى كل مكان من العالم.

* وما تأثيرها فى نفسك؟.

الإحساس بالضعف وسهولة العطَب. عندما يرى المرء الغلاف الجوى من أعلى، ذلك الغشاء الشفاف الذى يغلف الأرض، يسأل نفسه: أهو غطاء، أم

(١) سورة الأحقاف ـ ٢٠.

كفن؟. ما معنى البساط النباتى، والهواء الجوى، والماء على مستوى الكتلة الأرضية؟. كل ذلك عبارة عن طبقة ضئيلة من الحياة على سطح الأرض، لا تساوى شيئا بالنسبة لكتلة الكوكب.

* ولكن يقال ـ على الأرض ـ إن كوكبنا ضخم، وثرواته الطبيعية هائلة.

نعم، إن جوف الأرض كتلة ضخمة، ولكن قشرتها الخارجية التى نعيش عليها ـ وفيها ـ وتمثل كل صور الحياة، هى طبقة ضئيلة، مثل قشرة البيضة، أو أرق. على هذه القشرة الرطوبة، والماء. إذا جففت هذا الماء من سطح القشرة، فماذا يبقى منه؟!، ولا نقطة واحدة.

* لكننا نقول: إن الأرض متماسكة، قوية، محيطها أربعون ألف كيلو متر وعاشت فى مدارها بلايين السنين، وننام مطمئنين إلى ذلك... لكن قشرتها الرقيقة التى تضمن حياة البشر مهددة، تتعرض للعدوان فى مناطق كثيرة منها. فى أمريكا الجنوبية مثلا تشاهد من الفضاء علامات، بل هى بالفعل جراح مكشوفة فى المساحات الخضراء النباتية. وفى أفريقيا حرائق مشتعلة فى أجزاء متعددة من الحزام الاستوائى على امتداد البصر، ولا أحد يتكلم عنها مطلقا. إن المنظر من أعلى إلى غابات أمريكا الجنوبية مخيف، فالحياة تتراجع فيها لملايين السنين، وبعد دقائق من التحليق فى الفضاء يشاهَد التصحُّر فى أفريقيا. إنها علامات الهلاك، والموت الزاحف.

* إذن، بين ماضى «الأرض» ومستقبلها انعكاس للزمن..

أحيانا، من أعلى، يظن المرء وهو ينظر إلى الأرض، أنه يشاهد المريخ. هل تعرف أن بعض العلماء يعتقد أن المريخ كان مثل الأرض، وأن الحياة كانت فى زمن ما على سطحه؟. إذا عرضتَ صورا لبعض مناطق من سطح الأرض اليوم على شخص غير متخصص، فسوف يقول لك: هذا كوكب المريخ!. إن المريخ يعتبر نذيرا لنا. إن «الأرض» دهمها سرطان الجلد، مع ملاحظة أنه تحت جلد الأرض.. لا حياة!.

* والبحر؟.

هو أيضا جزء من الجلد، ولو رأيت من الفضاء السفن والناقلات، وهى تُفرغ نفاياتها فى البحر...!.

* وهل يُرى ذلك من الفضاء؟.

كل شىء بوضوح. ترى فوق سطح البحار والمحيطات انتقالات لونية رديئة منفرة، وعلى الشواطئ بقع ملطخة من القاذورات، خاصة عند مصبات الأنهار والخلجان. هل هى من أفعال الإنسان، أم الطبيعة؟. إن الأرض حقا مريضة.

* ومن المُذْنب؟. من الذى تسبب فى مرض الأرض؟.

لا أحد برىء. إنها أزمة حضارة. هل أخطأنا الطريق الذى اخترناه بسلوكنا وأسلوب معيشتنا، وتبِعَنا فيه غيرنا؟، وإلى أين سيقودنا النَّهَم الاستهلاكى المنحرف؟!.

* والذين يتسببون فى إشعال الحرائق بالغابات، وفى تصحر الأراضى الزراعية، أو تحويلها إلى بنايات، والذين يهلكون الأحياء...

كل إنسان يقول: «لست أنا، إنه غيرى.. الآخرون»، لكن هذا الغير وهؤلاء الآخرين هم نحن جميعا. نحن نستخدم كميات هائلة ومتنوعة من الكيمائيات، وأين تذهب؟. تتسلل إلى غشاء القشرة الأرضية: التربة، أو الأنهار والبحار والمحيطات، أو تَصْعد تفاعلاتها الضارة إلى الغلاف الجوى، أى الهواء الذى نتنفسه ويلامس أجسامنا، فتفسد الأرض التى سينشأ وينمو عليها أبناؤنا وأحفادنا، وليس من حقنا إتلافها، ليس من واجبنا ألاَّ نفكر فيهم.

* بمعنى: أنا وبعدى الطوفان..

هذا للأسف هو المقابل، ثم ندَّعى أننا أبرياء. هل تعرف ما الذى يعتصر قلبى؟. عندما أذهب إلى هولندا، وأشاهد تلك الأعداد الضخمة من الدراجات كوسيلة مواصلات.. وأقارن بها غيرها!.

* ولكن المدينة والمدنية والحضارة المتطورة من لوازمها السيارات.

نعم، السيارات وسياسة الإنتاج بالجملة والاستهلاك بلا وعى: لابد للأب من سيارة، ثم الأم، ويرغب الابن المدلل فى امتلاك سيارة خاصة به، فتُشترى، ولماذا لا يكون لأخته واحدة مثله..؟.

والمصانع تنتج، ولابد من البيع، أليس كذلك؟. ومن أعلى، من الفضاء تشاهد النتيجة: طوفان السيارات فى شوارع المدن. إنها مظهر الثراء، والثراء المريح، لكنه مثل الكوليسترول فى شرايينا. إنه دليل ثراء ونعمة، ولكنه مرض!.

* ألا من عودة؟ تَراجُع سريع؟.

إذا استمر الحال على هذا المنوال، فلا علاج، ولا أمل. وهذا مثال: إننا نشرب المياه التى تكونَت ببطء شديد على القشرة الأرضية.. مياه العصور الوسطى، أى من نحو ألف سنة. وإذا كان حقا تأثير أهل الأرض السيئ على طبقة الأوزون بأعالى الغلاف الجوى، فإن إصلاح ما فسد يحتاج إلى عشرات السنين، وربما إلى قرن بأكمله إذا اتخذت الترتيبات الصحيحة الحازمة. إنها مشكلة ليست بسيطة، ولا عابرة.

* من العسير العودة بالمدن إلى ما قبل عصر السيارات والصناعات الضخمة، والإنتاج المستمر بالجملة، ولسوف يستمر شق الطرق، وتكسيتها بالأسفلت، والبناء بالخرسانة، وإقامة المصانع والقرى السياحية على الشواطئ، وزيادة شبكة الطرق السريعة، ولا يهم أن الماء يجرى، ويتناقص.. والأرض عطشى.. لكن، بصورة عامة.. وأنت تشير إلى الصناعة ـ وهى ثمار العلوم ـ ألم تكن أنت فى مركبة فضائية معقدة التركيب تدور بك فى الفضاء، وهى ثمرة العلم والصناعة؟!.

إننى آخر من يصُب اللعنات على العلم والتطور العلمى، ولكننى أذكر أن المفكر «مونتنى» قال: «علم بلا وعى (أو ضمير)، تدمير للنفس». لست نبيًّا،

ولا قارئا للمستقبل، ولكن ما أرجوه حقا وببساطة، أن أكون شاهدا على صحوة هذا الوعى، لدفع كل منا إلى الاتجاه الصحيح، والعمل الإيجابى.

إن الإحساس بالمسئولية الفردية على مستوى الحياة الشخصية والحياة الجماعية ليس أمرا سهلا. وإذا حدث ذلك.. تصبح الحلول والإجراءات متاحة فى كل مكان. أعود وأكرر: ليس من حقنا مطلقا أن نترك لأبنائنا حياة مستقبلها صعب... وربما مستحيل!.

وبعد... فهل من مُدَّكِر؟!.

اجتماع دولى على ارتفاع ٨٠٠٠ متر !

من خمس دول مختلفة تقابلوا، وتشاوروا وتحاوروا، ثم عزموا على أغرب اجتماع دولى فى التاريخ: على ارتفاع ثمانية آلاف متر، فوق إحدى قمم جبال هيمالايا بالتبت، أو بالتحديد: فوق القمة الخامسة، بعد صعود أربع قمم على التوالى تحتها؟.

وشرط آخر: أن يصعد كل منهم متسلقا بمفرده، من أى زاوية أو جانب من الجبل يختاره، ثم يتم اللقاء فى الأعالى.. قريبا من القمة!، وكانوا سبعة.

شرط ثالث: السرعة..!، فليس الهدف مجرد الوصول إلى القمة الأخيرة، وإن كان لم يتحقق من قبل بلوغها بهذا العدد، ومن دول مختلفة معا، وإنما الهدف الأكبر والأصعب هو التنافس على تسجيل زمن قياسى، رغم المخاطر، والمخاوف، والمخافر، والأهوال.

وهى حقا أهوال عاتية، قاسية، مؤلمة، مفزعة، ليس أبشعها الموت، لأنه فى تلك الارتفاعات الشاهقة: الدقيقة فى المعاناة شهر، وعذاب الساعة دهر، وليس من جرّب وخَبر، كمن سمع أو قرأ!.

فى ٢٩ مايو ١٩٥٣، نجح أول إنسان فى تسلق أعلى قمة جبل على سطح الأرض: قمة إفرست[1] بجبال الهيمالايا الآسيوية (وهو من نيوزيلندا «إدموند هيلارى»، يساعده تنْزنج نوركاى النيبالى). ومنذ ذلك الحين، تدافع أبطال التسلق من كل أنحاء العالم، يحاولون ويتنافسون... منهم من ينجح، والكثير يفشل، والبعض يموت من التجمد، أو يهوى، فيهلك. والهيمالايا

(١) ارتفاعها: ٨٨٤٨ مترا = ٢٩٠٢٨ قدما.

سلسلة ممتدة هائلة ضخمة، كثيرة القمم، متفاوتة الارتفاعات، لكنها جميعا خطرة، خطرة، خطرة..!.

من خلال ما سوف يرويه أحد الأبطال العالميين السبعة الذين اجتمعوا ـ فوق قمة «شيشا بانْجما ـ Shisha Pangma بالتبت/٨٦٤٦م» سنتعرف ـ وربما لأول مرة ـ على أحوال الجبل، والطقس، والصقيع، والليل، والنهار، والضوء، والظلام، والمعيشة، والكفاح، والأفراح، والآلام، والحياة، والموت.. فى أقسى وأمتع رحلة ـ على حد تعبيره ـ يمكن أن يقوم بها إنسان، خاصة إذا ما نجح فى الامتحان!.

السبعة المغامرون هم: بينوا شامو ـ فرنسا (الراوى)، س. دوروتى ـ إيطاليا، ج روكو نكاج ـ تشيك، أ. هينكر ـ بريطانيا، م. روسِّى إيطاليا، (ولم يكمل معهم ب. روييه ـ فرنسا)، إ ـ دتْرى ـ فرنسا، س. بوير ـ أمريكا.

١٢ مايو ١٩٩٠ ـ الساعة الثانية صباحا ـ الليل مظلم، حالك السواد، على الرغم من أن القمر مكتمل الاستدارة والشروق. لم نستفد شيئا من وجوده. إننا فى داخل مخروط الظل الهيمالايى العظيم. نحن «البُثور» أو البقع السبع الصغيرة الحية المتحركة كالديدان فى هذا العالم الجليدى الجمادى الذى لا يَرحم، تحوطه مخاطر الهلاك وأطياف الموت فى كل لحظة، اقترابا من ارتفاع ثمانية آلاف متر.

ما نحن فوقه، وفى جوف ظلماته، إلا سبعة كشافات كهربائية ضئيلة تتحرك. وأية حركة؟، مثل زحف الحشرات. وكشاف الإضاءة الصغير معلق فوق الجبهة، نتحسس على ضوئه الهزيل مواقع القدم، بحذر شديد، وبطء أشد. لقد دخلنا فى المنطقة التى يسميها الألْبيون أو متسلقو الجبال الشاهقة: «منطقة الموت»:.. إننا على ارتفاع ٧٣٠٠م. الانحدار حاد متصلب،

والأوكسجين الجوى نادر. . كل خطوة تجربة خطرة ومخاطرة. أمامى ـ وقد اخترت أن أكون الأخير ـ «رجالى». إنهم «روح» الفريق، يتسلقون فى صمت مطْبق. إنهم مستغرقون تماما فى محاولة انتزاع ما تبقى لديهم من الكلاَّبات (الخُطافات)، وكل ضربة بالمِعول، وكل شهيق للتنفس.

هنا، تصير كل حركة، وكل فكرة معقدة مضطربة، نوعا من العذاب والمعاناة. معاناة عذاب أقسى وأشد من طبيعة هذا الارتفاع الشاهق، لكن كل واحد منا يتقاسم مع الآخرين الفكرة المحددة نفسها. الهدف المشترك أن نعود ونلتقى مرة أخرى مثلما فعلنا فى الثلاثين من إبريل الماضى، والتقينا فوق قمة «شو أويو Cho Ouo / ٨٢٠١م»، نلتقى نحن السبعة فوق قمة «شيشا بانْجما» التى تطل من عليائها على الأرض من ارتفاع ٨٦٤٦م. نلتقى معا، فى فريق مترابط، هو الأول من نوعه فى تاريخ الهيمالايا.

كان قرارا صعبا للغاية، وقد اتخذناه: أن نترك خيمتنا، ونخرج هكذا الآن ضائعين فى الثلاجات المظلمة. فتحتُ القناع الواقى من التجمد أكثر من عشر مرات، لكى أُخرج رأسى وأتفحص السماء، والأفق. ارتشفت ـ مستنشقا ـ صقيع الرياح الليلية. ترددتُ فى تقييم أخير لأهمية قرار أتخذه فى لحظة مناسبة. إنه قرار موضوعى قدر الاستطاعة، لكنه قرار شخصى أتحمل مسئوليته. فى الهيمالايا، لا توجد تنبؤات جوية للارتفاعات الشاهقة. لا وسائل إنقاذ، لا طائرة هيليكوبتر. فقط: الإنسان فى مواجهة نفسه، فى مواجهة العوامل غير المتوقعة. إنها البديهة. . البصيرة. . «الإحساس» الذاتى المتكفل بما سوف يأتى واتخاذ القرار، وأنا على رأس الفريق، أشد صعوبة مما لو كنت وحدى، مثلما كنت أفعل لعدة سنوات، مسئولا فقط عن نفسى. الآن، تلازمنى مسئولية سلامة الفريق.

أعلم جيدا أنه ليس لنا الحق فى ارتحال خاطئ. . فلدينا من مواد الإعاشة ما يكفينا للانتظار يوما كاملا، ولكن من الخطأ الفادح أن ننتظر. . فقد سبق أن

قضيتُ ليال كثيرة فوق أعلى جبال الهيمالايا، وأعرف جيدا الارتفاعات، واحتمالات آثارها الخطرة السيئة على أجهزة الجسم البشرى.

على ارتفاع سبعة آلاف متر، يضعف الجسم، ويصيبه الوهَن بسرعة، وإذا امتدت الإقامة فترة أطول مما يجب؛ جَذَبَتْ شبح الموت حتما. ونحن بالفعل فى غاية التعب، بعد أيام متواصلة من التسلق الشاق، وفى أقدامنا حصيلة الصعود إلى ثمانية آلاف من الأمتار المهلكة!، وفوق ذلك... فها نحن نتسلق بلا توقف منذ ثلاثة أيام، وكان نهار الأمس على وجه الخصوص طويلا مرهقا.

بين ارتفاع ستة آلاف، وسبعة آلاف متر، كان علينا أن نتحمل فجأة مواجهة حرارة شديدة، تتجاوز الثلاثين درجة مئوية، فى تلك البيئة الجليدية التى نعيشها، وتكيفت معها أجسامنا بعض الشىء لعدة أيام[1]. ويصبح تأثير تلك الحرارة حارقا مع انعكاساتها فوق سطح الجليد الدائم، الذى يشبه سطح المرآة، فتكون الحرارة اللافحة مثل برودة الزمهرير، كلاهما عذاب مؤلم.

بعد التهاب وجوهنا وجفافها، وعشر ساعات من الصعود، أقمنا مخيمنا، وركزنا اهتمامنا حول الشىء الوحيد الذى يشغلنا: إذابة قطع من الجليد فوق السخانات الصغيرة التى نحملها، وقضاء بضْع ساعات نشرب فيها الماء، ونشرب، ثم نشرب. لابد من الارتواء جيدا قبل مواصلة الرحيل نحو القمة.

اختفت الشمس، وبالطبع.. سرعان ما انخفضت درجة الحرارة خلال دقائق إلى ٣٠ تحت الصفر!؛ فألقينا بأجسامنا فى الحال داخل أكياس النوم (تشبه الألحفة المقفَلة) مع الملابس المبطنة بالفراء. درجة الحرارة داخل الخيمة عشرون مئوية تحت الصفر: أى ثلاجة تجميد!. تناولنا قليلا من الطعام بلاشهية. فى الثامنة مساء تقريبا، وبعد اتصال لاسلكى من مخيم المتابعة عند السفح، لم يتبق لنا إلا وقت قصير للراحة والنوم قبل الاستيقاظ المبكر، وقد حددته فى الحادية عشرة.. بعد ثلاث ساعات.

---

(١) من اكتشافات علماء الأرصاد الجوية الحديثة: أن درجة حرارة غلافنا الجوى تنخفض درجة واحدة كل ١٥٠م ارتفاعا (فى الظروف العادية). وعند ارتفاع معين ترتفع الحرارة فجأة. (ولا يعلمون سببا لذلك) وبعدها تعود إلى معدل الانخفاض التدريجى، وسبحان المقدر المغير.

الليل، مثل كل الليالى فى الارتفاعات الشاهقة غالبا، ما هو إلا إغفاءة طويلة، أو استراحة متقطعة.. فى حلقات.. وأحيانا يصعب فيه التنفس. الرياح تَعوى وتُصرصر، والجليد يتراكم فوق قماش الخيمة. تصدعات جليدية يدوى صوتها المفزغ كالزئير.. برودة الجليد تحتنا تخترق الوسادة. قبل أن أغوص فى النوم النصفى، ضبطتُ منبه ساعتى، وطلبت من «مورو روسِّى» و«إيف دترى» أن يفعلا نفس الشىء، حتى لانستغرق فى النوم.

الاستيقاظ مُضْجر ثقيل، حتى ولو لم يسبقه نوم. ووضع الجسم على الطريق عذاب أليم. فى تلك الأماكن العالية من العالم، يجب دائما بذل جهد لانتزاع القدرة على بذل جهد!. أقل حركة «مكلفة». كل شخص تحدوه الرغبة الشديدة فى الانطواء على نفسه. من الصعوبة بمكان المحافظة على الترابط، وإيقاع التزامن المتماسك بين أعضاء الفريق، ولكن بهذا الأسلوب وحده، يتحتم علينا أنه نغادر الخيمة معا، نحن السبعة، إذا ما أردنا اقتناص فرصة للوصول فى جماعة إلى أعلى القمة، فى درجة حرارة ٤٠ تحت الصفر، ومع الريح المارق، لا يتوقع من يتأخر عن المجموعة أكثر من ثلاث دقائق، سوى المخاطرة بالتجمد لا محالة!.

ها نحن فى المرحلة الأخيرة. قفزة واحدة، بعد جهود شاقة متواصلة طوال شهر ونصف الشهر.. لكننا وجدنا أنفسنا محاصرين بانهيارات جليدية على ارتفاع ٧٤٠٠ متر، وبرياح عنيفة، وبرد مؤلم.

عجزنا عن التقدم. لجأنا إلى الهرب من هذا العذاب بالإقامة داخل خيمة تتسع لثلاثة فقط، ولمدة يومين كاملين. يُفزعنا صوت فرقعة قماش الخيمة، بسبب تدافع الهواء ولفحه، ومن توقعنا فى كل لحظة أن تتمزق وتنهار فوقنا بما تحمل من ثلوج متراكمة. من العسير أن نغمض أعيننا.

هكذا تذوقنا العذاب السابق على الجحيم!. دفعتنى أصوات الرياح المتفجرة وعويلها المرعب إلى أن أقطع أجزاء صغيرة من لحاف الإسفنج الصناعى لأسد

بها أذنى. وما إن هدأ قليلا عنف الرياح فى الثالثة صباحا، حتى بدأنا نتجهز للرحيل مع طلوع النهار.

عندما تضيق المساحة، تصبح كل حركة بطيئة صعبة: من ربط الأدوات والأحذية، إلى وضع الزحافات، مع تثاقل الخطوات. لابد من التحرك بلا توقف، وإلا تجمد المرء...!. بعد ثلاثة أيام أخرى من التسلق نهارا، والنوم داخل الجليد ليلا، غادرنا فجرا المخيم الذى أقمناه على ارتفاع ٨٠٠٠م. كافحنا ونحن نغوص فى ثلوج تصل إلى منتصف الجذع، وأحيانا بطول القامة!. البرد قاس عنيف. المسافات بين أفراد الفريق تتباعد.. فكلٌ يبذل أقصى جهده وطاقته. وحين يُفتقد الترابط والانتظام، تتزايد فرص وأخطار التشتت.

الأفكار تتدافع وتستبق فى الذهن المكدود، مع الصمت الممدود: الهيئة، والقوة، الدوافع، والموانع، الشك، والرك (أى الضعف والوهَن)، الأمل، والمَلل، الفشل، فى خجل... وماذا تفكر فى غير ذلك؟، كل فكرة تتبع مسارها، ثم تضاعيفها فى تصورات متلاحقة مختلطة تنبش الماضى، وتَضيق بالحاضر، وتحلم بالمستقبل. وكل خطوة تنزع نفسها انتزاعا من براثن أرضية الجبل الجليدية، التى تُضمر الخطر والغيظ معا، كأن كل خطوة تخطوها بسلام، هى انتصار على هذا العملاق الأبدى المتحدى، الذى طالما أهلك رجالا، وأبطالا، ومازال متحفزا!. لا. لن نتراجع.. لن نستسلم.. فالوصول إلى

القمة.. قمة إفرست، أو إحدى القمم القريبة منها، والتلاقى جميعا فوقها، منظر رائع يداعب خيال كل منا على النحو الذى يمده بمزيد من الصبر والعزم، وتحمل الآلام.

وعند ارتفاع ثمانية آلاف وثلاثمائة متر، سقط «ستيف بوير» متهالكا، ولم نجد له عزْما. وبعد قليل، تبعه «سورو دوروتى». تابعت المسير بصحبة «مورو». الزحف على الجليد يزداد إيلاما وصعوبة، الأوكسجين الجوى نادر ويتلاشى تدريجيا. هبطت القدرة الجسدية والذهنية إلى ٢٠٪ من كفاءتها الطبيعية، ونحن على ارتفاع ٨٥٠٠م.

الجبل يزداد شراسة!... بعد كل خمس أو ست خطوات لابد مِنْ التوقف قليلا. قلبى يلهث بجنون. يصرخ ويحذِّر، ولا مجيب!. الرئتان كأنهما مذعورتان من تسارع الانبساط والانقباض، والتهوية المفرطة تصحبها آلام مبرحة. لذا.. يتحتم الوقوف لحظات لتخفيف الإيقاع، ولو قليلا. يجب أن نتيح وقتا كافيا، لكى يصل الأوكسجين النادر الثمين إلى الخلايا الحيوية فى الجسم، حتى نتمكن من بذل جهد خارق، نستطيع به المشى خمس أو ست خطوات أخرى...!، إلا أنه على ارتفاع ٨٥٠٠ متر من سطح الأرض، واجهنا صعوبات لم تكن فى الحسبان: حائط صخرى عمودى مرعب، تكسوه طبقات من الثلوج الهشة غير المستقرة، سمكها نحو ٤٠ سنتيمترًا، تشبه المسحوق الناعم الملتصق بالصخور.

يستحيل العبور!. يجب البحث عن ممر آخر. أضعنا ثلاث ساعات فى البحث عنه. وعندما عثرنا عليه، ومضينا فوقه، كان رفاقنا على إثْرنا يكافحون للوصول إلينا، وقد انضم إليهم (بإسقاط من طائرة هيليكوبتر خاصة) «ميشيل بارمنْتييه»، المصور المحترف، وخبير تسلق الجبال العالية، وصديقى. إنه ليس غريبا على جبال الهيمالايا، وله تحقيقات صحفية عالمية مصوَّرة عن رحلات وبطولات سابقة...

ونحن الآن على ارتفاع ثمانية آلاف وستمائة متر. قمة إفرست على مرمى البصر، لكننى أعلم جيدا أن اجتياز المائتى متر الأخريين يستغرق ساعات طويلة صعبة.. ثلاث أو أربع على الأقل. اقترحتُ على «مورو» أن ننتظر حتى يتجمع باقى أعضاء الفريق. وانتهزتها فرصة لتقييم الموقف بأجمعه، وتهيئة النفس والجسم للمرحلة التالية.... الأخيرة!.

سرعان ما اقترب المساء. تقترب معه كتلة ضخمة من السحب. الصعود إلى القمة معناه إذن بالتأكيد حلول الليل، وفى جو عاصف. فلما اقترب الزملاء الثلاثة الآخرون، وتبينْت ملامحهم، تملكنى الخوف. الوجوه والأطراف منتفخة بشكل مفزع بسبب السوائل المرتشحة تحت الجلد، وبسبب التغيرات الحادة المتلاحقة فى درجات الحرارة، وبسبب ظروف الارتفاع والإرهاق والتعب فى نهاية الذروة.

بعضنا لم يتهيأ جيدا بالملابس

الواقيــة المناسبــة لليـل فـى هـذا الارتفاع. هذا يعنى المخاطرة بالتجمد الكامل، بالموت.. أو على الأقل: بتْر بعض الأعضاء من الجسم!. رأيت أنه من واجبى «تسخين» أفراد الفريق نفسيا ومعنويا قبل الزحف نحو القمة. ولكن، بأى ثمن؟!.

بسرعة دقات القلب وجريان الفكر، فرغت من تحليل الموقف، واتخذت القرار نابعا من العقل والغريزة معا: النزول.. الانسحاب!.

أعلنت قرارى بالعزم على التراجع. همهمة، وامتعاض، وجدل... ثم وافق الجميع. واستدرنا- آسفين مغمومين- نأخذ طريق العودة إلى مخيم المنسحبين قبلنا عند ارتفاع ثمانية آلاف متر. الثلوج تتساقط بغزارة. فى اليوم التالى، ونحن فى طريقنا الهابط، إذا بميشيل بارمنتييه (المصور) يخبرنى بأنه قرر العدول عن رأينا، وأنه سيتجه صعودا نحو القمة. تجاذبنا الحوار، كلانا بإصرار.. هو: محاولا إقناعى بصحبته، وأنا: مصمما على إلغاء فكرته.

بقينا وحدنا على هذا المنوال، بعد انصراف رفاقنا فى الحال. وبعد ساعتين، كاملتين، لم أستطع أن أقنعه بسماع صوت العقل، فتركت له جهاز اللاسلكى (الراديو) ومؤونة من الغاز، والأطعمة، والأدوية، ثم ودَّعته، وهبطت كالغاطس نحو الأعماق. فى الليلة ذاتها، وصلت إلى المخيم المركزى على بعد ثلاثة آلاف متر من نقطة التراجع، والهبوط حيث التقيت بزملائى. ما أسرع الانحدار والسقوط، وما أصعب الصعود!.

عندما نادانى ميشيل باللاسلكى، تبينت أنه فى عالم آخر. حاولت جاهدا مرة أخرى أن أقنعه بالعودة. كنت على يقين من أنه لن يوافق وينزل قبل أن يتحقق من سر جاذبية هذا الجبل الساحر له، وهى جاذبية- كما أخبرنى- لا يستطيع مقاومتها.

فى اليوم التالى، علمت منه أنه كسب مائتى متر صعودا، ثم فرغت الطاقة من بطارية جهازه اللاسلكى. وفى اليوم الذى أعقب ذلك، شاهدناه- بالمنظار المقرِّب - ينجز مائة متر أخرى فى الصعود، قبل أن يختفى فى الثلوج التى

تطمر فرائسها. ولقد غمرتْه تلك الثلوج وطمرتْه، وأخفتْه إلى الأبد!.

إن ميشيل فى ذاكرتى على الدوام. هو، وكل أولئك الأصدقاء الشجعان الذين اختطفهم الجبل، وابتلعهم أحياء، أو الذين أهلكهم قبل أن يلتهمهم، لكنه أبدا لن يهضمهم، بل يخفيهم تحت طبقات جلده، أو جليده المتراكمة. إننى أذكرهم جميعا فى كل رحلة جبلية، صعودا ونزولا، أقوم بها.

ومضت أيام فى الراحة، واستعادة النشاط والتهيئة والإعداد. وبعدها استجمعت كل قوتى ونشاطى. واستعاد الرفاق كل النشاط والقوة، وعزمنا من جديد على الوصول معا إلى القمة التى تتجاوز فى ارتفاعها ثمانية آلاف مترا: قمة شيشا بانْجما. أعضاء الفريق معى الآن هم: ف. فوليه/ فرنسا، ج. روكونكاج/ تشيك، أ. هينكز/ بريطانيا، م. روسِّى/ إيطاليا، ب. روييه/ فرنسا، إ. ديترى/ فرنسا.

بمجرد أن انسلخ النهار من الليل، انسلختْ معه كل شكوكى، وتغيرت نظرتى إلى الأمور. داخلنى شعور عميق بالثقة فى نجاحنا هذه المرة. عزمتُ على أن نتقدم بسرعة أكبر، وأن نُعجل بالصعود عاليا، لكى نتجنب خلال ساعات أن تفقد أجسامنا قدرا كبيرا من الماء بسبب الشمس.

بداية الرحيل دائما مفزعة.. فالمرء لا يستطيع أن يطرد الإحساس بأنه مقبل على عالم آخر، يقسو على الحياة. ومضيينا. النُّعاس يداعب جفوننا كل ساعتين، أو ثلاث. كل منا معلق فى الفضاء، راكع طوال مسيرته الزاحفة، لارتكازه على عصا المِعْول، الذى ينتهى طرفه بكُلاب (خطاف) ينغرس بضعة ملِّيمترات فى الجليد، ويتوقع الخطر المفاجئ فى أية لحظة. وبعد كل مجموعة من الخطوات، يلزم التريث قليلا- لثوان- لاستعادة التوازن والوعى، ومغالبة الإحساس القاهر بالنوم، والتحذير الداخلى لا يتوقف: تيقَّظ.. انتبه.. إياك أن تغفل.. أن تنعس.. وإلا تسقط!.

علينا الآن أن نجتاز منطقة تختلط فيها الصخور الخشنة الصلدة بالجليد

المتحجر، وبالثلوج الهشة، ثم نعبر بعدها مزلاجا (ترباس) ضيقا يعترض طريقنا فى الصعود: إنه ممر ضاغط يزداد كلما تقدمنا تيبسا وضيقا فى الصعود: إنه ممر يبدو أن اجتيازه سهل سريع، ولكنى أعلم جيدا أنه شاق عسر، ويستغرق عدة ساعات من التسلق. ومن أجل ذلك.. وحرصا على سلامة الرفاق، اخترت أن أكون آخرهم، لمراقبتهم، والإسراع بالنجدة إذا دعا الأمر. أمامى: إيف ذورْتى.

تذكرت ما أفضى به إلىّ «إيف» فى بداية تلك الليلة، حيث قال:

«لن ننجز اليوم شيئا. ليس هو اليوم المناسب. لن نبلغ فيه القمة». وشعرت أننا أخطأنا فى توقيت الرحيل!، إلا أننى ذكَّرته بأنه ليس وحده، وأنه يملك قدرات لاشك فيها، غير أنه لم يختبرها فى المحاولة السابقة، ثم أضفت أنه إذا كان الفريق محافظا على الإيقاع المطلوب للمهمة؛ فلسوف ينجح فى الصعود.

كنت واثقا من قيمة وتأثير العمل الجماعى، وروح الفريق إذا ما أُحسن توجيهه عن علم وبصيرة. ظل «إيف» يتسلق أمامى لعدة ساعات، وأنا أشجعه بين الحين والحين بكلمة، وبوجودى على مقربة منه. ورغم أن قدراته ـ فيما يبدو ـ محدودة، إلا أنه تسلق صاعدا خطوة بخطوة، بدافع من طاقته العقلية مثلنا جميعا. وهى فى ذاتها قوة!. استطعنا بعد عدة سنوات من الممارسة أن نستثمرها إلى أقصى حد، سواء على المستوى الفردى، أم الجماعى. إنها قوة «الروح»، روح الفريق. إنها قوة تدفع وتسيطر على الفرد وعلى الجماعة إلى أبعد مدى فى أقسى الظروف، وفى البيئة البالغة الصعوبة.

طوال الوقت، كنا نمص قطَع الحلوى (البونبون)، وأى شىء آخر تطرده المعدة. إن كل طاقاتنا الكاملة تحركها تلقائيا المراكز الحيوية فى أجسامنا. ومنذ بداية التسلق، بدا أن المنطقة غير المألوفة موحشة وخطرة. تكوينها الجليدى من النمط المعروف باسم «الكتلة المهوِّية»، أى كتلة ضخمة بارزة فى الهواء، عرضة

للانهيار، ٣٠ أو ٤٠ سنتيمتراً من الثلوج المضغوطة، منفصلة من طبقات الجليد بوسادة هوائية. إنها تزن عدة أطنان، وقد تنفصل عن الجبل فى بضع ثوان. ويكفى ثقل إنسان لكى يدفعها إلى الانهيار.

تجمعنا لنتشاور فى كيفية مواجهة هذا الخطر. قررنا أن نترابط معا بالحبال. دق التشيكى «جوسكا راكونكاج» وتدا من الصلب فى حائط صخرى. انطلق «بيير روييه» فى المقدمة، فأصبح عاليا فوق المجموعة، ليتمكن من تصويرها، وهى تجتاز هذا المعبر الخطر. الثلوج تحت معوله- وتحتنا أيضا- تئن وتطن. فى تلك اللحظات.. يتمنى المرء لو كان فى خفة البعوضة!. حرصنا على أن نعبر تلك الكتلة المهوية غير المستقرة واحدا بعد واحد. ولم أنس ذلك الحادث التاريخى فى الستينيات فى جبال الألب (الأوربية) حين انزلق أربعة عشر رجلا معا، وهم من المرشدين الجباليين، وهووا إلى الموت. وأيضا فى يونيو ١٩٨٥، وكنت متسلقا وحدى، صاعدا جبل جاشر بروم فى باكستان، وعلى ارتفاع سبعة آلاف متر، وبمجرد أن لمست كتلة جليدية ضخمة جدارية بالجبل، بطول ألف متر، إذا بها تنفصل وتنهار؛ مخلّفة هوة بعرض ٥٠٠ متر!.

عندما رفعت رأسى لأُلقى نظرة على زملائى الذين تقدمونى، لاحظت أننا نتحرك بسرعة الملّيمتر. فزعت.. ففى هذا الممر الضيق الذى يقودنا مباشرة إلى القمة، يكفى أى انزلاق بسيط، أو تحرك كتلة من الجليد أو الصخور للإطاحة بكل أفراد المجموعة. يجب أن نجتاز بسرعة أكبر.. مثل الحيوان الذى يبحث عن مهرب من المطاردة والخروج من المأزق. كان الاقتراب من القمة يمنحنا شعورا بقوة مضاعفة.

ثم ها هى المرحلة الأخيرة!، وكلما اقتربنا من القمة، ازددنا قوة، ونسينا المشقة والإرهاق. وانحصر تفكيرنا فى شىء واحد: الوصول إلى القمة. إنها هناك، خلف تلك الصخور. الأمتار الأخيرة المتبقية ثقيلة الوقع، قاسية، عنيفة، لذيذة!. خلال بضع دقائق سوف نبلغ نهاية المطاف.. نهاية شهور، سنوات

من المشاعر المشتركة.

لقد نجحنا.. معا. نحن السبعة، كرجل واحد، نجْثم فى زهو فوق القمة الحادة مثل نَصْل السكين!. ياللسعادة.. بعد هذا المشوار الطويل الذى قطعناه بالألم والأمل، ها نحن نجلس فى استرخاء ممتع فوق سقف العالم. إنه بحق.. انتصار الفريق.

أغنى وأنظف مناطق الأرض

فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين، تحمست جماعة من المبشرين المسيحيين، وعزمت على الذهاب إلى مناطق الجليد الدائم الشمالية، تدعو إلى الإيمان أولئك الذين يعيشون هناك فى تجمعات متناثرة، فى أقسى ظروف جوية باردة يمكن أن يتحملها الانسان، وفى معزل عن العالم، وما يجرى فيه. كانت الاستكشافات الجغرافية الزاحفة نحو القطب قبيل تلك السنوات، تثير المشاعر والخيالات.

التقى المبشرون ببعض السكان- وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد: الإسكيمو- ودار حوار ونقاش حول الخالق والخلق، الحياة والموت، البعث والحساب، الجنة والجحيم، ثم سأل بعض الحاضرين البسطاء فى براءة لاتشوبها سذاجة:

- وما الفرق بين الجنة والجحيم؟.

- الجنة فيها حياة النعيم الأبدية، والجحيم نار دائمة سرمدية. وعمل الإنسان فى حياته على الأرض- من خير، أو شر- يقوده إما إلى نعيم الجنة، أو إلى نار الجحيم.

وهنا صاح الحاضرون جميعا داخل الخيمة المقامة على طبقات الجليد الدائم:

- رائع ذلك المكان الذى فيه نيران دائمة للتدفئة. إننا نفضل الجحيم إذًا!!!.

تلك واقعه حدثت بالفعل، وليست فكاهة أو طُرفة... فنحن الذين نتأفف ونرتعش ونتلهف على مأوى دافئ إذا انخفضت درجة حرارة الجو إلى الصفر، أو ما يقرب قليلا من الصفر، لا نستطيع أنه نتخيل، أو نستشعر حقيقة ما يعايشه أقوام من البشر، أرضهم البيضاء طبقات من جليد دائم منذ آلاف

وملايين السنين، تهب عليها موجات من رياح باردة، قد تبلغ سرعتها مائتى كيلو ـ متر فى الساعة، وتنخفض درجات الحرارة أو البرودة فى شتائهم «الطبيعى» إلى ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر. إنهم يعيشون فى «ثلاجات» هائلة.. عاتية!، لكنهم حقا يعيشون ويتناسلون، ويعملون، ويطربون، ويحزنون، ويكبرون، ويموتون، وكذلك كل الحيوانات والأسماك والطيور من حولهم، كما يحدث فى كل بقاع الأرض..... ولكن على نحو طريف عجيب- بالنسبة لنا بالطبع- وهذا مايستحق المعرفة والتأمل، خاصة بعد أن زحفنا بمدنيات العصر ـ بخيرها وشرها ـ إلى تلك المناطق، وربطت وسائل الاتصال والمواصلات والبعثات العلمية والرحلات السياحية والمشروعات الصناعية والبترولية والقواعد العسكرية، ربطتْها «بالقرية» السكانية للكرة الأرضية.

منذ نحو قرنين ونصف من الزمان، كان يعيش فى روسيا عالم أديب مشهور فى الأوساط الفكرية والثقافية، يدعى: «ميخائيل فاسيليفتش لومونوسوف». وكان من عادته أن ينام فى غرفة مُفَتَّحَة النوافذ، ودرجة حرارة الجو ٢٠ تحت الصفر، وكان يردد دائما، أن مستقبل روسيا كامن فى سيبيريا، وفى المحيط المتجمد الشمالى.

بعد مائتين وخمسين سنة، أدركت روسيا صدق هذا الرأى، وبُعد هذه النظرة السديدة، حينما استخدمت تكنولوجيا «البرودة» أكثر من أى دولة أخرى. ولهذا السبب.. فإن أعداد العلماء والفنيين والتكنولوجيين الروسيين فى المناطق شديدة البرودة شمال سيبيريا يزيد ثلاثين مرة عن عدد أقرانهم الأمريكيين فى ألاسكا الباردة شمال كندا.

ولهذا السبب أيضا.. وتطبيقا لرأى «لومونوسوف» الحصيف الرشيد، كان من أوائل اهتمامات الثورة الروسية، إنشاء أول معهد علمى قطبى فى مدينة «مورمانْسك» فى أقصى الشمال الغربى لسيبيريا عام ١٩٢١، تلك المدينة المطلة

على المحيط المتجمد الشمالى، الذى يفصله عن المنطقة القطبية. فى ذلك العام.. كان عمر المدينة لايتجاوز خمس سنوات، يعيش فيها نحو نصف المليون، وتعتبر ميناء مهمـًا به أكبر أسطول فى العالم من سفن كاسحات الجليد العملاقة التى تعمل بالطاقة النووية مع سفن أخرى مجهزة للعمل فى المناطق القطبية. وهى المركز الأول للصيد البحرى فى روسيا، ونقطة ارتكاز لتصدير الثروات المعدنية الضخمة المستخرجة من أراضى سيبيريا «الباردة»، فضلا عن أنها نقطة انطلاق تسعة وعشرين بعثة علمية دائمة إلى الكتل والجبال الجليدية العائمة (للمقارنة: ليس لدول الغرب إلا خمس بعثات علمية لهذا الغرض).

والأهم، بل الأخطر من ذلك... تعتبر «مورمانسك» مرتكزا لأشد القواعد العسكرية رعبا فى العالم. والعجيب أن تلك القاعدة الاستراتيجية تبدو تقريبا غير منظورة. ومع هذا.. فهى تضم ١٩٧ غواصة، و١١٩ سفينة حربية مقاتلة مع وحدات البحرية المساعدة، وأكثر من خمسمائة طائرة حربية قاذفة ومطاردة، و٧٠ بطارية إطلاق صواريخ سام، وكل هذا الحشد موزع على ١٩ موقعا أو قاعدة عسكرية بحرية، و٢٢ قاعدة جوية رئيسية، و١٨ مطارا ثانويا، بالإضافة إلى البنية الأساسية للقوات التقليدية البرية تمتد إلى حدود النرويج، أى لنحو مائة كم. يضاف إلى ذلك كله... أن تضم تلك القاعدة الاستراتيجية الروسية قوة ردع هائلة رهيبة، ممثلة فى ترسانة، يقدرها الخبراء بنحو عشرة آلاف من الرؤوس النووية.

المدهش، أنه من الطائرة، لا يلحظ الركاب شيئا من ذلك كله، ولا حتى أقمار المراقبة الصناعية، وفى الليل القطبى تبدو المنطقة من الجو مجرد اتساع من التوندرا بلا حدود، مرصع بالبحيرات المتجمدة، يدور من حولها طريق وحيد ثقابى الشكل، يلمع فى ضوء القمر، كأنه شريط متعرج من الفضة. والمدينة هى الوحيدة فى الشمال الروسى التى لا تتجمد مياهها طول العام؛ بسبب تيار الخليج الدافئ.

ومورمانسك تعتز وتفخر بأنها استطاعت أن تصمد وتقاوم لمدة أربعين شهرا الغزو الألمانى، وأن تعمل ليل نهار أثناءها فى تفريغ سفن الحلفاء (التى فرضت الحصار الكامل على البحر القطبى) لإمداد الجيوش الروسية بالعتاد والمعدات الضرورية، فى الحرب العالمية الثانية.

ومورمانسك، مثل مدن الشمال السيبيرى، تآلفت مع البرودة التى قد تصل شتاء إلى ٦٠ درجة مئوية تحت الصفر. ويعجب المرء كيف مثلا أمكن شق (بالمعنى الأصلى، لا المجازى لكلمة يشق) خط للسكك الحديدية فى أرض جليدية تماما، طوله ثلاثة آلاف كيلو متر، وفى مناطق قد تخلو تماما من شجرة واحدة أو نبات، وتتجول فيها الدببة، طول الواحد منها ثلاثة أمتار ونصف المتر، وقطعان حيوان الرنة، التى تبلغ عددا نحو مائة ألف!. كل شىء فى سيبيريا- فيما عدا السكان- يقاس بالوفرة، والامتداد، بما يتناسب مع مساحتها التى تعادل ثلاثة أمثال مساحة أوربا. فى مقاطعة بها تسمى «ياقوتسك»، متوسط درجة الحرارة شتاء ٢٧ درجة تحت الصفر، ومساحتها ستة أضعاف مساحة فرنسا، وفيها مناجم ثرية بالذهب، والماس، واليورانيوم، والتنجستن، وخمسون نوعا آخر من المعادن، بكميات هائلة. كم عدد سكانها؟. نحو المليون، فقط- نصفهم أقل من ١٥ سنة- يعيشون فوق الجليد. كم سمك طبقات الجليد؟. مائتان وخمسون مترًا، وعدد سكان ياقوتسك وحدها مائتا ألف!، مساكنهم- مثل معظم مدن شمال سيبيريا- لا تزيد عن خمسة أو ستة طوابق، مقامة فوق أعمدة، ترفعها عن الأرض الجليدية بنحو متر، لكنها من الداخل دافئة، مريحة، مجهزة جيدا، ومعزولة عن البرودة والحريق.

وحتى مطار مدينة يافونسك، يتميز بالوفرة فى الطائرات الصاعدة والهابطة، بمعدل واحدة كل أربع أو خمس دقائق، سواء للركاب، أم الشحن، على مدار اليوم.. فالمدينة تعتبر البوابة الرئيسية لشمال شرق سيبيريا.. فى أقصى الشمال الشرقى لسيبريا توجد قرية «أُويْمياكون»، التى هى أبرد قرية سكانية فى العالم: فى الشتاء تهبط درجات الترمومتر (مقياس الحرارة) إلى ٧٢ تحت الصفر

لعدة أيام!، فإذا ارتفعت إلى ٥٧ درجة مئوية تحت الصفر، تفاءل الناس، واستبشروا خيرا!.. فالمسألة إذن نسبية!.

تلك القرية يسكنها نحو مائتين فقط، وبها شارع واحد، لكن المدهش أنه إذا لم تهب رياح بادرة، فإن الجو يكون - فى مثل هذه البرودة - مناسبا، بل أيضا منعشا!. أشهر منتجات السكان: الصوف والفراء. وتشتهر بالمعمِّرين: ٩٢، و١٠٣، و١٠٦ سنة!، يحبون الموسيقى، حتى الكلاسيكية الروسية، وطعامهم المفضل: لحم الخيول السيبيرية المقدد، وشحومها، ولسان الخيل المسلوق، ولبن أنثى الخيل الرائب يضعونه على حافة النافذة، لكى يتجمد، ويصبح كالزبادى. وجهاز التليفزيون أساسى فى بيت كل أسرة. والملابس عند الخروج غالبا من الفراء، ولابد من غطاء الرأس، أيضا من الفراء حتى للأطفال. حول هذه القرية النائية السعيدة، أكثر من ٧٠٠ (نعم سبعمائة) منجم للماس والمعادن الثمينة، يضاف إليها.. البترول والزئبق.

لم تعد سيبيريا ذلك المنفى المنعزل أيام القياصرة. وهى وإن كانت تحتفظ بالكثير من سماتها وظروفها وطبيعتها - والطبيعة غلابة لا تُقهر - إلا أن تيار المدنية بمتطلباتها وأدواتها زحَفَ عليها، ويُسرع الخطوات والنمو، فى شكل المدن الجديدة والقرى والطرق، وخطوط السكك الحديدية، والمطارات، والمصانع، والمناجم، والموانئ.

وفى الموانئ منظر خيالى، لا يصدقه إلا من رأى بعينىْ رأسه: عشر سفن ضخمة كاسحات جليد، محركاتها تعمل بالطاقة النووية، «تفتح» الطريق طوال الشتاء بين ميناء مورمانسك فى أقصى الغرب وميناء فلاديفوستوك فى أقصى الشرق من سيبريا، أمام عشرات سفن الركاب والشحن. تأتى محملة بالقمح والأسماك، وتعود محملة بالمعادن والبترول وثروات سيبيريا، وبدون هذه الخطوط البحرية الدائمة طوال العام، تعود تلك المنطقة الشاسعة إلى ماضيها وعزلتها الغابرة.

على الجانب الآخر من المناطق الشمالية الباردة المحيطة بدائرة القطب الشمالى، تفصل حدود سياسية بين سيبيريا الروسية وبين إقليم «فينْمارك» شمال شبه جزيرة اسكندنافيا (تضم السويد والنرويج)، تعيش قبائل الرعاة منذ ثلاثين قرنا أو أكثر، على تربية قطعان الرنَّة. قديما كان عددهم فى شمال النرويج نحو أربعين ألف، وفى بقية شبه الجزيرة نحو ثلاثين ألف، واليوم لا يزيدون عن ألفين، لكن للأسف، أهلكت الإشعاعات الذرية التى انطلقت مع انفجار مفاعل تشرنوبيل الروسى، عددا كبيرا من حيوانهم الأثير لديهم، الذى ترتكز معيشتهم عليه، خاصة فى السويد. إنهم بقايا شعب لا يعرف فى لغته كلمة مرادفة «للحرب»، ولا «السلام». وهذا يعكس نمط حياتهم الاجتماعية المترابطة المتآلفة على نحو غير معهود أو مألوف فى عالم يهوى النزاع والعراك والقتال، بسبب ما، أو بدون إبداء الأسباب!.

على بعد ٧٠٠ كم من الدائرة القطبية الشمالية، توجد مدينة «ترومْسو»، الميناء المطل مباشرة على منطقة القطب الشمالى، ويسمونها باريس الشمال، رغم أن عدد سكانها لا يتجاوز الخمسين ألفا، وهى مركز لتجميع زيت السمك، ويشبِّه سكانها رائحة هذ الزيت برائحة النقود أو الثروة.

والليل فى تلك المدينة هو أطول الليالى فى أى مدينة على وجه الأرض.. فهو ليل قطبى، يطول لعدة شهور، ثقيل البرودة والقسوة، لذا.. يخشى علماء الاجتماع من أثر ذلك على سلوكيات الأهالى، لأنهم ينامون قليلا، ويشربون من الخمور كثيرا، فتزداد نسبة الإصابة بأمراض القلب، وهم لا يعْبأون.

وفى السنوات الأخيرة بدأت تظهر فى البحر الذى تطل عليه المدينة رائحة البترول. وثبت بالفعل وجود مخزون كبير منه تحت سطح البحر، لكنها تشتهر أيضا بأسماك السلمون المدخن، وتصدر منه كميات كبيرة، لكنها تواجه بسببه مشكلة: فالسلمون المدخن الذى تصدره من النوع القطبى لحمه أبيض، وهذا يضايق أذواق الفرنسيين، وإن كان لا يُضير الألمان.. فالفرنسيون لا يعترفون بالسلمون، ما لم يكن وردى اللون، فما العمل؟. فكر سكان «ترومسو» المعنيون بهذه المشكلة، وتوصلوا إلى حل عملى وطريف: تؤخذ

أسماك السلمون وهى حية، وتربَّى فى أحواض ضخمة لمدة ستة أسابيع، وتغذى فقط بدقيق الجمبرى، فيتحول لونها إلى الوردى، فيرضى عنها «الزبون» الفرنسى ويتلذذ بها، خاصة وأن هذ الأسلوب فى التربية السمكية حسَّن من طعم لحمها!.

وعلى هذه المدينة، مر كبار المستكشفين الرواد للقطب الشمالى، مثل: نانسن، وأمندسن، ونوبيل...

وإذا اتجهنا شمالا، تظهر على البعد مناظر مدهشة، ولا نظير لها فى أى مكان آخر من عالمنا: مرتفعات جليدية، مثل القطن المندوف، تتخللها الأمواج العالية، فإذا ما اقتربنا منها أكثر وأكثر؛ تكاثفت، وبدت مجموعة جزر «سفالْبارد» الصخرية، وهى صخور من الجزر التى تكسوها المهابة والسحر، لكنها شرسة خطرة، تذكِّر على الفور ببطولة المكتشفين الرواد الأوائل الذين اقتحموا ـ بشجاعة نادرة وصبر ـ مجاهل تلك البقاع، بوسائل عصرهم البسيطة المحدودة.

إن «سفالبارد» تابعة للتاج الملكى النرويجى، لكنها تخضع لاتفاقية دولية أُبرمت فى باريس عام ١٩٢٠، تقضى بمنع أى نشاط عسكرى فيها، غير أنها تمنح الدول الأربعين الموقعة عليها حق إقامة البعثات العلمية، والتنقيب عن الثروات الكامنة فى بحارها، لحساب الدولة المعنية بهذا الأمر. وإلى الآن، لم يُستثمر من تلك الثروات إلا الفحم، لحساب النرويج والروس، لكن لا هذه ولا تلك فى حاجة إلى هذا الفحم، بل هو غالى التكاليف جدا جدا: فالإنفاق على استخراجه يعادل أربعة أضعاف قيمته فى السوق!، فضلا عن أن الفحم الروسى المستخرج ينقل إلى مورمانسك، وبه نسبة عالية من الحصى (٢٥٪ على الأقل)، فهو إذن خسارة اقتصادية محققة.. فلماذا يستخرج؟!. إن قيمته الاستراتيجية أغلى من الذهب، فهو فحم «سياسى» ١٠٠٪!.

إن السبب الحقيقى جغرافى تماما: فموقع «سفالبارد» فى المنطقة القطبية

الشمالية هو فى الواقع يجعلها أهم مزلاج (ترباس) على وجه الأرض.. فهو يتحكم فى مدخل شمال الأطلنطى، وهو المنفذ الرئيسى، الذى لابد منه للأساطيل الروسية الرابضة عند شبه جزيرة «كولا». وإذا كانت الغواصات الروسية من طراز «تايفون» ـ أى الإعصار ـ المزودة بصواريخ ذات رؤوس نووية تستطيع أن تتسلل تحت الماء، وتطوِّق أوربا، انطلاقا من قاعدتها فى «مورمانسك»، فإن حاملة الطائرات «كييف» مثلا ـ فخر البحرية الروسية ـ أو الطرادة «كيروث» وأمثالها، لابد لها من العبور عند «سفالبارد»، وهى بمثابة عنق زجاجة ضيق، لا محيد عنه.

ثم نتجه بعيدا ناحية الغرب، لنتوقف قليلا عند طرف شبه جزيرة ألاسكا، على مقربة من الحدود الفاصلة بين ألاسكا (التى انضمت إلى الولايات المتحدة الأمريكية) وبين روسيا.

فى أطراف القارات، شمالا وجنوبا، توجد مدن صغيرة ـ هى أقرب إلى القرى ـ لها سماتها الخاصة، مواقعها المتميزة جغرافيا واستراتيجيا، فى شبه عزلة عن العالم، لكنها تحظَى باهتمام وقيمة إذا كانت فى المواجهة من دولة كبرى، أو قوة عظمى.

«توكْسوك» قرية حديثة فوق حافة جزيرة صغيرة تبرز من ساحل ألاسكا، تسمى «جزيرة نلسون»، وتطل على بحر بيرنج الذى يفصل الولايات المتحدة (الممثلة فى ألاسكا شمالا) عن روسيا. ليس فى الجزيرة شجرة واحدة. وأقرب شجرة إليها على بعد مائة وخمسين كيلو مترا.. وابتداء من عام ١٩٦٤، بدأ السكان من القرى المتناثرة بالجزيرة يزحفون نحو توكسوك لعدة أسباب، منها: أن يكونوا قريبين من مواقع صيد الأسماك صيفا.. فيأتى بعضهم يحمل «بيته» ومتاعه فوق عدد من براميل الزيت الفارغة، يربطها ببعضها البعض، ثم يجرها فوق الأرض إذا لم تكن مغطاة بالثلوج، أو يسحبها وهى طافية فوق مياه الخليج المطل على بحر بيرنج.

وإذا أقبل الشتاء، حزم بيته وشباكه وأمتعته فوق تلك البراميل المتضامة،

وسحبتها الكلاب المدربة فوق الجليد إلى موطنه.. ويحتاج هذا النقل إلى ثلاثين كلبا، يسيرون تسع ساعات فى اليوم. والحق أنهم يعودون «بغنيمة» تستحق كل هذا العناء: أسماك مجففة، زيت الفقمة، وجلودها، وأشياء أخرى مُربحة، مثل أسماك السلمون والرنجة.

يحرص كل بيت فى توكسوك - وهى بيوت خشبية صغيرة - على وجود حمَّام به، تتصاعد منه أبخرة المياه الساخنة، حيث ينعمون كل ليلة بحمام بخار منعش.

اليوم، ظهرت فى أرجاء القرية سمات «الفخامة» العصرية: مياه نقية عبر المواسير إلى داخل البيوت، أعمدة إضاءة بالشوارع، تيار كهربائى متاح لكل إنسان، وجهاز تليفون. ولكن، كل شىء بثمن: فالكيلوات من الكهرباء مثلا يدفع عنه نصف دولار (بالتحديد ٤٨ سنتا) تسهم فيه الإدارة المحلية بالنصف، وهذه القيمة تعادل خمسة أضعاف ما يدفعه سكان العاصمة الأمريكية (واشنطن). وقس على ذلك... قيمة المكالمات التليفونية، وأسعار الجازولين (الجالون = ٢,٥ دولار)، والآيس كريم، والصابون.

فى موسم الربيع ينشط الصيادون - إضافة إلى صيد الأسماك - بعد ذوبان الثلوج، فيصطادون الفقمة، والثعالب، وحيوان المِنْك (فراؤه ثمين جدا) وطيور البط والإوز.

تستغرق فترة الصيد بضعة أسابيع فقط، يعود بعدها الصيادون إلى مواقعهم، وحصيلة كل منهم تتراوح بين ثلاثة آلاف، وستين ألف دولار، وفقا لمقدرته وخبرته و.. حظه. وهو مبلغ يكفيه للإنفاق حتى الموسم التالى. ويشترك الرجال والنساء - فى الأسرة الواحدة - معا فى الصيد.. فالرجال يستخرجون الأسماك من البحر، والنساء يُصلحن الشبك، ويجففن الأسماك فوق الصخور، ثم يحفظنها فى العلب، أو الصناديق.. فلكل مهمته وعمله التقليدى.. حتى الفتيات لهن عمل: ملاعبة الأولاد الصغار، ورعاية الكلاب.

ويحرص الكبار على تعليم الصغار كيف يحمون أنفسهم من العواصف الثلجية المفاجئة: بحفر طبقة الجليد الأرضية، وعمل جُحر للاختباء فيه.

وأهالى المنطقة لهم لغة خاصة، لذا.. من العسير على الإثنى عشر طالبا من أبنائهم الملتحقين بألاسكا فى مدينة فيربانكس التفاهم بطلاقة مع زملائهم وأساتذتهم. وسرعان ما يشعرون فى تلك المدينة بمرض الغربة. وهذا دليل على الترابط الشديد والعلاقات الحميمية داخل الأسرة.

وشىء آخر متعلق باللغة، ويسمى عندهم لغة يوبيك: وهى أن بعض الكلمات له أكثر من معنى ومغزى.. أو قيمة أخلاقية تربوية: فمثلا، كلمة «اسمع، أو استمِع» هى نفسها تعنى «أطِع»، أى أن السمع والطاعة يجتمعان معا فى كلمة واحدة. والآباء لا يتجادلون ـ وبالتالى لا يتشاجرون ـ بطلقا أمام الأبناء، ولا يعاقبون الصغار أبدا جسمانيا، ولكن يفضلون أن يدخلوا معهم فى حوار أو مناقشة، حتى يكتشف الصغار بأنفسهم أنهم مخطئون.. لكن مشكلة الآباء، أن بعضهم ـ بل أكثرهم ـ يسرفون فى شرب الخمور. وحينئذ يفقد معظمهم أسلوب الوداعة والرقة. والخمور وافد جديد من الخارج.

والقرية كلها كاثوليكية العقيدة، والطلاق لا يكاد يسمع به أحد. والالتزام بشعائر وتعاليم الدين ليس مظهريا، أو مجرد أداء لواجب، فهم جادون فى ذلك كل الجد، وفى كل عام يقام احتفال دينى، يجتمع فيه سكان القرى المتناثرة فى الجزيرة، يؤدون الصلوات، وينشدون، ويغنون، ويتبادلون الأحاديث والسمر.

وينشأ الأطفال على استيعاب مواريث الكبار، سواء فى الجد، أم اللعب. وعندما يفلح الفتى أو الصبى فى صيد أول فقمة بنفسه، وبمفرده، تفرح الأسرة، وتقيم الأم حفلاً، تدعو إليه نساء القرية، تقدم فيه لحوم تلك الفقمة المطبوخة، مع غيرها من الأطعمة المفضلة والمشروبات، وتوزع على الأطفال القادمين إلى الحفل الحلوى والعصائر، ويتلقى الفتى صائد الفقمة الشجاع هدايا

من الوافدين: الأرز، والزيت، والسكر، والملابس، والمناديل الورقية!. وفى نهاية الحفل، تقف الأم ـ الفخورة بابنها ـ على باب بيتها، وأمامها كل الأمهات الوافدات وأطفالهن، ثم تقذف نحوهم فى الهواء بأنواع من الهدايا والتذكارات، يتسابقن جميعا مع أولادهن للحصول على شىء منها، والكل ضاحك سعيد مبتهج.

والتعبير الشائع بينهم: أن الأسرة مثل السلسلة، طالما كان أفرادها داخل بيت واحد، فهم مترابطون مثل حلقات السلسلة. ولكل منهم مكانه، وقيمته، وعمله مع من يجاوره من الحلقات.. فإذا تزوج؛ انفصل عنها، ولكنه سيظل طوال حياته جزءا منها. وإذا لم يتزوج؛ بقى مستمسكا بها، وكل ما يكسبه الفتى أو الشاب ـ مهما بلغ من العمر ـ يعطيه لأبيه طوال إقامته داخل الأسرة، فيأخذ الأب منه ما يشاء، ويرد إليه ما يرى أنه كاف لمصروفه الخاص.. فإذا تزوج الابن، انتقل إلى بيت جديد، ودارت الحياة دورتها على نفس المنوال.

ثم بدأ مؤخرا تعليم اللغة الإنجليزية فى السنوات الأولى بالمدارس، التى أخذت تنتشر. وفى عام ١٩٧٦ أقيمت فى القرية أول مدرسة ثانوية، تكلفت مليونى دولار أمريكى، وفّرت على الطلاب السفر يوميا مسافة ١٩٠ كيلو مترا إلى أقرب مدرسة فى وادى «يوكون».

وبرنامج الدراسة الجديدة يشمل: الإنجليزية، والرياضيات، والعلوم، والاقتصاد، والآلة الكاتبة، وتجارة السوق، بالإضافة إلى الحرف الفنية التقليدية المحلية، و..... الرقص!. وتناول زحف المدنية المعاصرة أيضا الملابس والأزياء، وأصبح شائعا بين الشباب والأطفال: القمصان الشبابية (تى شيرت)، والبنطلون الجينز، والأحذية الرياضية المطاطية الحديثة، بينما تحافظ الفتيات على ارتداء الملابس الحديثة، ولكن بشرط أن تكون طويلة، والأقراط المدلاة، وسترات (جاكيت) سميكة من جلد الفقمة، أو فراء الثعالب البيضاء، أو الذئاب القطبية الصغيرة. وامتلأت الساحات بالسيارات المقاومة للثلوج، بدلا من الزحّافات التقليدية القديمة.

وخارج المدرسة، ينشغل الفِتْيان بالصيد، والفتيات داخل بيت الأسرة بالعمل المنزلى مع الأمهات ورعاية الصغار. . فإذا كان الوقت صيفا، خرجْن لجمع بيض الأسماك، وأنواع أخرى تصلح للطعام. وخلاف هذا وذاك. . ليس أمام الشبان والشابات من مكان أو عمل يشغلهم، سوى الألعاب الرياضية، لكنها قاصرة على ما يؤدى داخل المدرسة، فى فصل الشتاء الطويل المظلم: فقط للبنات كرة السلة، وللبنين ألعاب رياضية أخرى كثيرة. وتقام المباريات للتنافس مع طلاب المدارس فى القرى المجاورة.

وتنظم المدرسة الثانوية احتفالا سنويا (كارنفال) عامراً بالألعاب والمرح والمسابقات، ومن يخطئ، أو يفشل، أو ينهزم فى المباريات والمسابقات؛ يحتبس داخل «سجن» مقلَّد لمدة دقائق أو ساعة، حتى ولو كان عمدة القرية، أو أعضاء مجلس القرية، أو القسيس!. وفى ساحة الاحتفال المزينة بالأشرطة الملونة، والنجوم اللامعة، ينتخب الحاضرون «ملكا» و «ملكة» للعام الدراسى، ثم يضع كل منهما التاج البراق، ويفتتحان حلبة الرقص برقصة «ملكية».

وعندما تدق الساعة معلنة الحادية عشرة ليلا- ولا نقول قبل منتصف الليل، لأنه ليل يطول لبضعة شهور!- يتوقف كل شىء، ويبدأ الجميع فى الانصراف إلى منازلهم على دقات أجراس الكنيسة. ومن أراد السهر بعد ذلك، ففى البيت متسع مع جهاز التليفزيون أو الفيديو!.

ويعترف الآباء- فى شىء من الأسى- بأن ما يفد إليهم من العالم الخارجى يغير من حياتهم وأسلوب معيشتهم، خاصة منذ تطبيق برنامج إعادة التوطين، والأدهَى من ذلك. . . مع قدوم بعثات الكشف عن البترول. وتدفقت ملايين الدولارات لإنشاء الطرق، والمساكن، ومتطلبات معيشة القرن العشرين، واقتصادياته، وذلك منذ عام ١٩٧١، مع بداية تنفيذ المشروعات. ومنحت قبائل الإسكيمو، والهنود المحليون والأيويث أموالا وقروضا بالملايين لانتزاع ٩٠٪ من أراضيهم، وأجبروا على الدخول فى تعاونيات بالإسهام مع سكان القرى

الأخرى. وجاء الرجل الأبيض، بأمواله وآلاته إلى تلك الجزيرة ليزداد تضخما وانتفاخا وتكديسا للثروة، جالبا معه أمراض العصر، ونفايات بلا حصر، و«حضارة» مفروضه بإغراء أو قسْر.

وفى اجتماع محلى- وما أكثر الاجتماعات التى تعقد- وقف رجل مسن وقور من الأهالى يقول: «لم تعد الأرض، ولا الماء، ولا الهواء كما عهدناها وألفْناها من قبل. والمشتغلون باستخراج البترول يزعجوننا بالضوضاء، ويقذفون بأشياء ضارة فى الماء، وحتى لو توخوا الحرص، فإنهم يغيرون أشياء وأشياء»!.. فوقف رجل آخر يسأل: «هل تصغى شركات البترول إلى شكاياتنا؟»، فرد عليه ثالث فى تهكم: «إذا كنت قويا بما يكفى، ومعك سلاحك جاهزا للإطلاق فى يدك»!. وبعد نقاش حاد ساخن حزين، حسم عمدة القرية الأمر- وهو من السكان الأصليين مثلهم- فقال: «إن رجال البترول لا يعبأون بالأسماك، ولا الفقام (جع فقمة)، ولا بالطيور. إنهم يأتون إلى هناك من أجل البترول، والثروة، لكى يعيشوا حياتهم ويأكلوا طعامهم. وهم لا يأكلون هذا الطعام، ولا يعيشون تلك الحياة، إلا من خلال المال. وعليكم أن تفهموا ذلك، وترضخوا له». فلما أشار أحد الحاضرين إلى تغير سلوكيات الشباب بعض الشىء؛ رد العمدة قائلا: «ذلك لأنهم ذهبوا إلى الجامعات بالخارج، وخالطوا أهل المدن من البيض، وإذا أرغمناهم على العودة إلى تعلم أكل طعامنا من الأسماك المقددة، فسوف يموتون جوعا»!. وصاحت إحدى الحاضرات: «إذا فقدنا ثقافتنا، وفقدنا جذورنا، فإن ذلك يعنى إضعافنا وهدمنا. وعلى أى شىء يحرص الصغار مستقبلا، وعَلاَمَ ينظرون وراءهم؟. هل سيعرفون من أين جاءوا؟!.

وللأسف، بدأ يظهر صراع بين الآباء والأبناء، بين جيل قادم وأجيال مضت، ولا يظن أحد أن هذا الصدع سيلتئم، وليته لا يتسع!.

وداعًا للبساطة، والهدوء، والبيئة الطبيعية النظيفة، رغم خلوها تقريبا من مظاهر المدنية المعاصرة، لكنها ثرية بالوداعة، والترابط والتآلف، والالتصاق بالجذور، والقناعة بالمفطور، والاستمتاع بدفء الأسرة، وإن كان طعامها كِسْرَة!.

البحر، والليل، والناس، والحب

بكل معانى السيادة، وما تحمل من: قوة، ورهبة، وسيطرة، وسلطان، وعطاء، وأخذ، ومنح، ومنع، ورضا، وغضب، وصفاء وبطش...

لولا البحر، لما كانت على الأرض حياة. ولئن كان من المسلم به أن الماء أصل كل كائن حى، فإن الأحياء تتنفس الهواء.. وبدون البحر لن يوجد على الأرض هواء يناسب تنفس الأحياء. لذا.. فإن البحر يشغل نحو ثلاثة أرباع مساحة سطح الأرض. والبحر عامل أساسى فى توزيع الحرارة على اليابسة، وفى تشكيل صور الحياة عليها، وفى ترتيب مسارات الرياح، وفى قيام حضارات، ومدن، وموانئ، وتجارات، ورحلات، وروابط بين الشعوب واتصالات. والبحر مورد هائل لطعام سكان الأرض، ومصدر للطاقة والمعادن والأملاح، فضلا عن أن ٩٧٪ من مياه الأرض مخزون بالبحار والمحيطات. إن وجود بحر على كوكب من الكواكب معناه تلقائيا وجود أحياء، واستمرار حياة. وانعدامه مرادف للاّحياة.

هل يدرك الإنسان ذلك، ويقدره حق قدره؟.

فى هذا القرن، أى على مدى نحو مائة سنة، انتزع الإنسان- بأنانية وإسراف وجهل- بلايين الأطنان من الأحياء البحرية، وقذف فيه بلايين الأطنان من المواد السامة، دون نظر أو اعتبار للمحافظة على مخلوقات البحر، وهى مكونات أساسية لنظام الحياة على الأرض، الذى يعيش البشر فى نطاقه.

عندما كان سكان الأرض لا يتجاوزون مائة مليون منذ نحو خمسة آلاف سنة، كان تأثيرهم السيِّئ على البحر محدودًا، لا يكاد يضير.

وحتى فى القرن الثامن عشر، عندما ارتفع عددهم إلى نحو البليون (المليار)، كان الأثر السيِّئ على البحر ضعيفا.. لكن العدد قفز إلى خمسة بلايين فى عام ١٩٨٥، وفى السنة نفسها، وما تلاها من سنوات، قل تدريجيا مقدار الكائنات البحرية المستخرجة من البحر. ما معنى ذلك؟. أن أحياء البحر تناقصت، بل واختفت أنواع منها إلى الأبد. ولمّا كان اهتمام الإنسان بالفضاء وارتياده يفوق عنايته بالبحر وكشف أسراره، فإن الكثير من جوانب الحياة البحرية ما زال مجهولا، غامضا، دفينًا فى ظلمات البحر، وأعماقه السحيقة التى لم يصل إليها الإنسان بعد. لذا.. لا أحد يعرف ماذا أصاب تلك الأعماق البعيدة وكائناتها الحية من أدران وأضرار وأمراض بسبب الإنسان، وأفعال الإنسان، وحماقة الإنسان!.

ولو علم الناس أن المحافظة على البحر، وعلى الكائنات الحية فى البحر، وعلى نظام الحياة والنمو داخل البحر، هو فى ذاته محافظة على مياه الأرض، وطقس الأرض، ونظام الحياة على سطح الأرض (وبالتالى حياة الإنسان، والحيوان، والنبات)، عندئذ، سيفكرون جادين، ويعملون متضافرين، بأسلوب جديد، ومنهاج قويم مع البحر وعالمه.. اعترافا منهم بالفضل، وردًّا لبعض الإحسان.. فمنذ آلاف، بل ملايين السنين، والبحر- طائعًا- يقدم للناس المعروف والفضل، ويمنح- قانعا- كوكبنا قوام الحياة، وركيزة نشاط ونمو وعمل.

ولكن...

هل نعرف نحن بحق ما هو البحر؟.

سؤال يبدو ساذجا، لا يحتاج إلى إجابة، وربما لا يَخْفَى على أى طفل أن يفيض فى الحديث عنه.. فقد وقف على شاطئه، و «بلبط»، أو سبح فى مياهه، وقد يكون ركب ظهره فى سفينه، وحتما رآه مرارا فى أفلام السينما، وعلى شاشة التليفزيون.. فإن كان شابا يافعا، أو رجلا كبيرا (ولا ضير أن

تكون فتاة أو سيدة)، فهو قد خاض مياهه سباحة، أو انزلق داخلها غوصا، أو شقها صيدا. . هذا صحيح، ولكن ما زال السؤال قائما: هل نعرف بحق ما هو البحر؟!.

فى كتابه الرائع الممتع الظريف المخيف، يردُّنا «أوليفييه دو كرْزوزون» إلى حقيقة البحر، وعالمه، من خلال كتابه «ذكريات مثيرة»، وهى ذكريات حقيقية، لاخيال فيها، ولا مبالغة أو افتعال، لأنه واحد من أشهر أبطال عالم البحار المعاصرين، الذى دار مرارا حول العالم وحده- أى وحيدا، وهذا مدهش ومثير فى ذاته- بمركب شراعى، وفى أسلوب شاعر بسيط عذب يحدثنا عن علاقته بالبحر وجولاته- خاصه الليلية- فيه، وما رأى، وواجه، وسمع، وتعلم. وبعد ذلك نراجع أنفسنا فى إجابتنا عن السؤال!. يقول:

منذ أن كنت صبيا صغيرا، وأنا شغوف بالسهر ليلا، وكأننى فى موقف التحدى مع النوم، أو على الأقل مع النوم الطويل. كنت أشعر أن هذا الإصرار على السهر يكسبنى قوة. وقد لا أكون مبالغا. . فإن أى إنسان ينام ثمانى ساعات فى اليوم، سيجد أنه فى سن الستين قد قضى عشرين سنة ـ ثلث عمره ـ نائماً، وهذا مخيف![1].

إذن، فأنا أعشق سهر الليالى، وأبجِّل الذين يعملون ليلا، والساهرين مع القمر، فلا يزاحمون الجموع المتدافعة المتضاغطة، الزاحفة مع شروق الشمس، وضجيج الصباح، وصياح المشاه والركبان. وعندما يعود الساهرون فى هدوء مع الفجر إلى مضاجعهم، فإنهم يتركون الأرض للكتل البشرية الصاخبة.

فى جوف الليل، تتفتح مشاعر الكائنات البشرية، فتجرؤ على التعبير بما تعجز عنه فى النهار، ولليل تأثير ضاغط. . فيزداد التيقظ، وتنطلق النفس متحررة من حواجزها، فتنفجر الأحاسيس والرغبات، وهى لا تخلو من جمال.

---

(١) فى دراسه علمية أمريكية نشرت فى أكتوبر ١٩٩٦، ثبت أن نوم خمس ساعات منتظمة ومريحة كل يوم، يكفى تماما لمطالب الجسم البشرى.

والنوم ضرورة، نعم، لكنه فى الواقع غيبة!. تلك هى الفكرة المبهرة التى صاحبتنى منذ سنين، وتشعرنى بالثراء.

عندما أكون فى المركب ليلا، إذا ما صحبنى شىء من ضوء القمر فإننى أرفع عينىّ، وغالبا ما أكتشف خيبة الظن تطل من عليائها الموحش.. فالسحب المتراكمة تسرع متضاغطة، متجهمة بلا توقف وضراوتها قاسية شرسة، تحتها العالم مظلم تماما، كتلة سوداء ثقيلة، صلدة، لا تسمح بنفاذ.. فيستحيل علىّ رؤية المركب، أو حتى طرف ذراعى، أو قدمى.

عندئذ يحدث شىء غريب، كأننى أكبُر وأمتد وأتضخم، إذ يصبح بدن المركب بأكمله هو جسمى.. فضربات الموج فى صدر السفينة أشعر بها مباشرة فى ذراعى، وقدمى، والكليتين. وبفضل هذا الإحساس، ومع انعدام الرؤية البصرية، يمكن قيادة المركب، والسيطرة عليه، وتوجيهه بدقة بالغة، والدخول فى سباق، دون أدنى شعور بتأثير السرعة. ينتاب المرء حينئذ إحساس قريب من الدوار، وهو يرتفع عاليا بإيقاع منتظم، لكنه فى واقع الأمر ثابت لا يتحرك من مكانه، وسط عالم خال تماما من المعالم، مغمور فى الظلام، منقطع عنه الأفق لا يتبين- أو حتى يلمح- أى بروز للموج، أو منظور يحدد له الموقع والمكان الذى هو فيه.

تميل الليالى غالبا إلى الهدوء، فتجلب معها فيضا آخر من السعادة والنشوة. وتفرض الظلمة نفسها، فلا يبقى فى الوجود أحلى من التأمل خلال أهداب فسيحة من الظلال اللامعة، الكثيفة التى تحيط بالمركب والأشرعة.

تلك الليالى الجاثمة فوق البحر بصوتها الشامل، تحتضن الرجل الممسك بالدفة، وكأن الظلمة عباءة تنسدل على كتفيه، نديَّة ناعمة، وهو يحتمى من البرد داخل غطاء واق محكم من المشمَّع تحته رداء سميك، والجسم تسرى فيه موجة من النشاط والانشراح البهيج، فيبدأ الإحساس بالغموض الساحر.. ليس من معالم واضحة، إلا نبضات إشعاعات متقطعة صادرة من البوصلة، ثم

تتضخم الظلمة، وتتراكم، صارمة، موحشة. وهنا تسيطر الأذن على الحواس الأخرى جميعها، وتتولى هى توجيهها وقيادتها، وبالتالى، فإن كل عمل فنى تقَنى يرتبط على نحو ما بها. وهى على اتصال مباشر ومستمر بصوت انسياب المياه بطول بدن المركب، وبرعشات الأشرعة وباصطفاقها المفاجئ، الذى يعنى انفكاك واحد أو أكثر من أربطتها، أو حدوث خلل فى توجهها بعرض البحر.

ثم فجأة، يكتمل ظهور القمر فى لياليه المضيئة. يرتعش فوق الماء، أو يسقط على سطحه بحدة، فيلمع كل شىء، ويصير فضيا. وينشأ أفق جديد فى غُلالة فاخرة من الأنوار، مبهمة، لكنها تتوالد، وقد تصحبها بعض الألوان. لابد للظلام من نور، والعكس صحيح...

فى البحر، أرقب القمر كل الليالى. إنه صاحب رفيق مشجِّع يؤنس الوحدة. أحيانا أحدثه. إنه مرآة فى السماء، عين تبصِر وتبصَّر، أنثوى فى بعض الليالى النادرة. شاهد على العالم، ساخر من تناقضات سكان الكوكب المطل عليه، أهل الأرض، ومن مدنهم التى فيها كل شىء يسرع، ويتصارع.

فى البحر المحيط الفسيح، لا يغفل ربان المراكب والسفن فى بعض الليالى عن الصلاة، خاصة عند اقتراب خطر، أو تصادم، أو موقف تتجاوزه السيطرة... وهنا يكون الجحيم. أذكر مرة أننى كنت على وشك النوم، وإذا بأمواج جامحة تتكسر ضاربة المركب من كل جانب. واندفعت كتل من الثلوج المتجمدة تتطاير فى كل اتجاه، ضربت وجهى بعنف، أفقدتنى الرؤية، ثم تسارعت وتسارعت فى ضباب من الزبد الأسود.

ومع ذلك.. فمن رأيى أن الجو الليلى السيِّئ أقل إرهابا من النهار. ففى الليل، يحمينا نوع من عدم الإدراك، من اللاوعى. ومع أول إشراقة الفجر مع بداية ظهور ملامح البحر، فى لون أزرق أخضر- رمادى قبيح، وقذر، مضر بالصحة بقوته البغيضة المنفِّرة، عندئذ يصاب المرء بالفزع من حجم الأمواج، وتنقبض النفس، ويتسرب إليها القلق من تداعيات الماضى، فيكون من الأفضل عدم التفكير فيما يبذل من جهد شاق، والإغضاء من المغامرة.

كثيرا ما قلت لنفسى فى بواكير الصباح إننى سعيد الحظ إذ خرجنا بسلام وبلا إصابة، المركب وأنا. فى البحر، تأتى أوقات يحسن فيها ألا يفكر المرء فيما حدث. وفى منطقة قريبة من شواطئ الجنوب عند رأس الرجاء الصالح، كان ربابنة السفن الشراعية الكبيرة فيما مضى، يمنعون الرجال العاملين على الدَّفة أن ينظروا خلفهم، مخافة.. أن يفزعهم حجم جبال المياه البيضاء المتصاعدة من ورائهم.

ويمضى الليل فى سباق، ولا بد لمنافسيه غالبا من الاستسلام، فتعتريهم فترة حاسمة من التحفز للهجوم. وهنا، أصبح فى غاية التوتر والعداونية، وأنصرف بكل كيانى إلى العمل. تلك الأعباء الليلية مدهشة... فالنشاط العضلى يستهلك الوقت، ويغفل الجسم والفكر عن الإحساس بالليل، ولا يبقى إلا نضال خشن لا يكاد يتوقف.

ثم يأتى طلوع النهار، تسرية عن النفس ومواساة، فتعود العين تبصر بوضوح وتتعرف، وتصلح ما فسد وتقيم ما اعوج، ثم يمضى كل شىء عاديا على سجيته، وتنتعش النفس، لأن عملا شاقا قد تم إنجازه، ويخلد الجسم إلى نوم قصير يستعيد فيه نشاطه.

إن فترة انسحاب النهار أسوأ وأشد قسوة من فترة طلوع الفجر وإشراق النهار. عندما تغرب الشمس وتختفى خلف الأفق، تترك وراءها ضوءا باهتا، وهذا يعنى انتهاء السكينة والمرح، والناس- على اليابسة- لايحبون ذلك. وفى معارك الحرب لا يدفع الجنود عادة إلى القتال فى تلك الساعة مع غروب الشمس، ويتحاشى القادة اتخاذ قرارات فيها. ولو كان طاقم مكونا من أربعة عشر رجلا محترفا، فإنهم جميعا يستسلمون فى تلك الساعة التى تُخْمد شجاعتهم. وربما كانت هذه رجعة خوف من الليل لا شعورية موروثة منذ آلاف السنين، لا تلبث أن تزول.. فالنهار يحتضر، والليل لم يُولد بعد، فيخيم على النفس شعور بالخواء المقيت.

فى الليل كل شىء يجرى بسرعة، وبسرعة أكبر إذا ما قابلت سفينة أو مركبًا. وفى أكثر الأحيان لا ترى منها إلا أنوارها: خضراء، وحمراء، أو بيضاء. إنه غموض، يضاف إلى غموض، يضاف إلى غموض. إن صوتها واضح، ورائحتها أيضا إذا كان الجو ساكنا.. فسفينة الشحن تفوح منها فى لحظة ما رائحة قوية نفاذة، أو رائحة المعدن المصنوع منه بدنها، أو الرائحة المميزة للمطابخ. إن رائحة سفينة الشحن تختلف عن رائحة سفينة الركاب، وعن السفينة الحربية.

تمضى السفينة فى طريقها، ويعود المرء وحيدا من جديد تحت سماء تكون أحيانا صافية، لامعة، ومُزدانة بما ينتثر عليها من ملايين النجوم.

أحيانا، تطوف بالنفس المخاوف، والقلق، والضيق، فتكون شديدة الوطأة. ويتمنى المرء أن يُسرع الفجر بالشروق. وأسائل نفسى: ماذا لو أن النهار لم يشرق أبدا؟. سيصير الليل إذن بشعا، دميما، معاديا بلا رحمة.

والليل فى المناطق الاستوائية متقلب بين الجمال الرائع والكآبة غير المألوفة. والسماء فيها متخمة بالنجوم، فإذا كان الجو صافيا، والحرارة معتدلة بعد نهار شديد القيظ والقسوة، فإن الإحساس باللذة لا ينقطع حتى مطلع الفجر. لا يكاد المرء يشعر بسيطرة الليل، وإنما هى مداعبة وملامسة وملاطفة المحبين، لا تتوقف حتى الصباح.

عند الرحيل فوق مياه البحر، لا أحد يعرف على وجه اليقين أنه سوف يرجع، وهنا تكمن الريبة... ألهذا الشك ارتباط بالمشاعر المختلطة المتضاربة التى تدور فى صدور الذين يجوبون البحار؟. أعتقد ذلك.. فهم دائما يتساءلون عما إذا كانت الرحلة سالمة آمنة مقطوع بنهايتها السعيدة المثمرة. إنه شىء يقرب من قصص الحب العنيف، حيث تتصاعد المشاعر والعواطف، وتبلغ ذروتها؛ فتطمس إدراك «العبور» نحو المستقبل، ورؤية احتمالاته بوضوح جازم.

فى البحر - كما فى الحب - يتوارى المستقبل، ويحتجب منفلتًا من بين أيدينا، ويبقى فقط فى الذهن «إن شاء الله» (هكذا نص تعبير المؤلف) ولا أحد مطلقا يضمن تتابع الأحداث.

هذا الشعور غلاب.. وعادة ما تكون آثاره عميقة مسيطرة. وهنا تجدر الإشارة إلى المبالغة فى الظن الشائع من رغبة البحارة دائما فى النساء. ربما ظهرت تلك الرغبة عند الاقتراب من الشاطئ، لكنها فى عرض البحر لاتبدو إلا فى الأحلام، بعيدا عن تلك المخلوقات الحوّائية. فى أى مدينة بالعالم لاتخلو الشوارع والطرقات من إحداهن كل خمس دقائق. أما فى البحر، حيث لا وجود لهن، فإن النبض العاطفى نحوهن يخفت، ويتلاشى، فلا دافع يثير الرغبة إليهن، ويبدو هذا أمرا طبيعيًا ومحتملا.

على الأرض، من المألوف أن يؤكد أحدنا لصديق أو قريب: «ياعزيزى سوف أراك بعد أسبوع، أو بعد أسبوعين، يوم كذا، فى تمام الساعة..... لنتناول معا قدحا من القهوة!»، أما فى البحر، فإن هذا غير متصور.. يكفى أن الرياح تعاند، فلا تهب أو تتحرك، فيصبح الارتباط بموعد ضربًا من (الهُراء). ولا علاقة بين ذلك وبين الخوف من الضَّجر، أو الغرق. كلا، إنه مرتبط بالعلاقة بين ركوب البحر وانسياب الزمن. لا وقت محدد باليوم والساعة والدقيقة، أو ببساطة: مبرمج.. إذ تتساوى عند البحَّار مساحات الزمن، فلا فرق عنده مطلقا بين ثلاثين أو سبعين يوما فى البحر، إلا عند أولئك الذين هم غرباء عنه، عندما يصيبهم الضجر والسأم، فيبدأون فى العد... «متى سنصل إلى الميناء؟».. «لا أدرى، ربما بعد أسبوع، أو بعد شهر.. لا يستطيع أحد أن يقرر بالحسم». إننى أحب هذا الشك، هذا التواضع المهدئ من غرور الإنسان. والأفضل الكف عن الحديث حول الوقت والتوقيت، وتجنب الأحكام الجزئية الطائشة- كما يقول أهل الأرض- التى تفتح بابا للحماقة والعبث...

لذا.. تعودت أن أعيش اللحظة بكل كيانى وطاقاتى، ومع المحركات وآلات المركب- خاصة إذا كنت فى سباق- ومع الأشرعة، ومراقبة السرعة واتجاهات الرياح وقوتها، وكل ما تتطلبه اللحظة من تفكير أو عمل أو مواجهة، وأشعر كأننى مروض أمام حيوان مفترس تبدو عليه الوداعة والهدوء، لكنه مستعد للفتك على حين غفلة. وأصبح ذلك عندى مألوفا محبوبا، أهواه وأستريح إليه. أحيانا، عندما أكون مصادفة على الأرض، أجوب شوارع مدينة ساحلية، يعترينى الضيق فجأة، فأسرع عائدا إلى سكون بيتى، إلى المركب، وهناك يتلاشى ما بالنفس من كآبة أو أحزان...

قبل الدخول فى سباق للمراكب الشراعية، أقضى نحو شهر فى معزل بأحد الأحواض المائية، أعايش الوحدة مع المركب ساعات طويلة كل يوم، ثم اليوم السابق على الرحيل بأكمله. ويأتى الزوار يتجمعون على الرصيف للمشاهدة، ولكننى لا أكاد أشعر بهم، فرأسى مشغول، كما لو كنت قد بدأت الرحلة بالفعل. ولو دار حوار معهم، لأنهم يحبوننى وأحبهم، فإننى أقصره مضطرا على كلمات المجاملة الموجزة، لاستغراقى فى عالم آخر مختلف.

والذى اعتاد ركوب البحر لمسافات وشهور طويلة، يشتاق دائما إلى العودة إليه، والأنس به. أحيانا ألمح بعض الربابنة القدماء، يأتى أحدهم ينظر ويتأمل من بعيد، فهو لا يملك مركبا، واعتزل السفر، فيرقب فى هدوء وكأنه يخشى أن يراه أحد.

فى داخلى أود لو أحييه وأكلمه، لكننى أحترم مشاعره، وحرصه على المسافة بيننا، فأتشاغل بتجهيزات المركب، وسرعان ما ينصرف. إنها عاطفة- وربما غريزة- حب البحر، تستيقظ وتنشط بين الحين والحين.

وخبرتى بالسفر الطويل فى البحر تجعلنى أصدق أنه لا وجود فيه للصدفة أو الحظ، أما عناية الله، فتعم. والملاحة البحرية المستمرة توقظ لدى الملاح- إن لم تكن تنشئ- غريزة من نوع خاص، تدفعه دائما إلى التيقظ والحذر.

فى أعالى البحار، يشعر المرء بقدرات كبيرة مستجدة كانت خافية تماما، تدفعه فجأة إلى القفز، أو الإسراع باتخاذ القرار المناسب، وتنفيذه بدقة على الفور، خاصة فى المواقف غير المتوقعة أو الطارئة. أذكر أننى مع غروب الشمس ذات مساء، وأنا فى طريقى إلى «جوادلوب»، وكنت جالسا أمام لوحة القيادة، وأمامى الخرائط، وإذا بى أشعر بوجود شخص خلفى، بكيانه وجسمه. لم أكن رأيت أحدا من البشر منذ سبعة عشر يوما. أسرعت بفتح جهاز الاتصال بالراديو، وناديت: «آلو، فيليب والْد»؟، فأجابنى: «هل أنت أوليفييه؟!»، وتبادلنا الحديث عن مواقعنا، فكانت المسافة بيننا ستين ميلا!. وعلمت منه أنه فى اللحظة نفسها التى شعرت فيها بوجود شخص يقف خلفى، أحس هو بى، وكان على وشك الاتصال بى لاسلكيا. وكم أدهشنى ذلك!.

ليست هذه حالة نادرة.. بل تتكرر كثيرا. وإنه لأمر شائع أن يسمع الناس من أحد البحّارة المسنين فى جزر البولينيز (فى المحيط الهادى قرب المنطقة الاستوائية) يعلن فجأة: «الجيولويت (مركب شراعى بصاريين) ستصل غدا»، وليس بينه وبين المركب أى اتصال، ولا يدرى شيئا عن ظروف رحلتها، وما تعرضت له من عوائق، أو عواصف، أو رياح، أو تنقلها من جزيرة إلى أخرى، لكن العجوز لايخطئ.. ففى اليوم التالى مباشرة تلوح المركب من بعيد، وتقترب حتى تتوقف عند المرساة!.

فى كتاب جان فرانسوا دانيو «البحر مستدير» إشارة إلى ذلك النوع من الإدراك الساحر بين الملاحين البحريين، عندما يحدث اتصال تلقائى بين رجل ومركب يخترق الزمان، والمكان، فتُقْفَل الدائرة؛ فيصيران سجينين معا داخلها، وفى الوقت نفسه متحررين من قيود المادة. وهذا لا علاقة له بالعقل، أو بتبرير منطقى، وإنما بالإحساس والوجدان. وعلى ذلك.. فكل البحارة مترابطون بصلة ما فيما بينهم، بشىء لا يمكن تفسيره، لكنه قوى، متين، وعجيب حقا، وهو فى النهاية قائم ومسلم به، وكأنه أمر طبيعى.

لا يوجد سلاح على مركبى، ومن المفترض أن يوجد، لكن القانون الفرنسى الذى أخضع له يمنع ذلك. والبديل عن السلاح غاز للدفاع. إن البحرية التجارية عبر العالم جديرة حقا بالتقدير والاحترام، ولكن أحياناً ـ وقليلا جدا ما يحدث ذلك ـ تقع مفاجآت محفوفة بالأخطار، تجعل المرء يفكر فى قيمة السلاح المناسب والفعال للدفاع عن النفس، ودرء الخطر.

فى أول رحلة لى عبر طريق جبل طارق، جلست متراخيا، والمراكب تمضى بسلام، وكل شىء يعمل فى هدوء على نحو جيد. وفجأة، فى الواحدة صباحا إذا بسفينة شحن، طولها نحو مائة وأربعين مترا، سيئة المنظر، لقذارة سطحها الخارجى، وما به من بقع وخدوش وصدأ، إذا بها تهجم مباشرة نحوى، دون أن تنحرف بعيدا درجة واحدة. فى لحظة خاطفة أيقنت أن الصدام بها واقع لا محالة. أسرعت بتغيير اتجاه مركبى، وانعطفت قليلا مبتعدا عن مسارها، والغيظ يغمرنى لابتعادى عن اتجاه الرياح الشمالية الغربية التى تدفعنى، وهذا قد يؤخرنى أربع أو خمس ساعات.

فى الثامنة صباحاً ظهرت سفينة الشحن نفسها، تشق طريقها نحوى مباشرة، لا تنحرف عن مسارى ولو بدرجة واحدة، توشك أن تصطدم بى!.

لا، ثم لا!. انحرفت مبتعداً، فانحرفت معى فى الاتجاه نفسه، ثم تقدمت تقترب منى، متزايدة السرعة. تضخم صوت هدير آلاتها، وكأنه كابوس مفزع. لسنا متكافئين، لا فى الحجم، ولا فى القوة، ولا فى السرعة. إن مركبى الشراعى بالنسبة إليها كالدمية. سألت نفسى: ماذا بالله يجرى أعلى هذا العملاق المجنون؟، إما أن القبطان مخمور من فرط الشراب ـ وهذا يحدث أحيانا ـ وإما أن عامل الدفة أصيب بلوثة عقلية، أو أنه غاضب إلى درجة الهوس؛ ففقد رشده، ويريد الانتقام على أى نحو !. لم أستغرق وقتا فى التفكير، وفضلت بَذْل كل محاولاتى للاتصال بالسفينة عن طريق الراديو، فهى لا تجيب. مرة أخرى غيرت اتجاهى، ففعلت السفينة الشىء نفسه. واستمر هذا

الطيش المخيف والقلق الداخلى. بعد لحظات لمحت السفينة تأتى مباشرة من خلفى، وكأنها تريد أن تسحقنى. وفجأة يبرز شخص على سطحها، ويشير إلىَّ بإشارة سوقية غير مهذبة. فى تلك اللحظة، لو كان معى سلاح جاهز للاستخدام، لما ترددت فى استعماله.

فى المقابل، أذكر أننى كنت فى جزر الآنتى، ومعى زميل من فريق السباق، وقبل الوصول إلى ميناء النهاية بستة أيام ساءت صحته من مرض أصيب به فى تلك الجزر. كانت الرياح فى مواجهتنا، ومن العسير تغيير الاتجاه، والعودة إلى مرفأ البداية، وحتى لو فعلت.. فإن طول المسافة كان كافيا للقضاء عليه. إذن لابد من الاتصال بطبيب على وجه السرعة.

فشلت محاولات اتصالى بالراديو. وبالمصادفة أمكننى الاتصال ـ عن طريق موجة اللاسلكى عالية التردد ـ بسفينة شحن قريبة من موقعى بالبحر، واسمها «مون ـ كالم» أى الجبل الهادئ. وكانت على بعد نحو سبعين ميلا. شرحت لها حالة صديقى، فغيرت اتجاهها فى الحال، واتجهت نحو مكانى الذى حددته بدقة عن طريق القمر الصناعى.

لم تكن الأحوال الجوية مريحة، والأمواج عالية قوية مضطربة. عن طريق المنظار المقرب رأيت أشباح ثلاثة رجال فى قارب إنقاذ يضىء إشارات الخطر. وما إن بلغ قمة الأمواج العالية، حتى اختفى عن نظرى تماما، ولم أعد أرى شيئا، ثم ظهر بعد فترة، وكأنه كومة صغيرة من القش، تتقاذفها الأمواج، ثم اختفى من جديد. شعرت بانقباض.. فأنا وحدى بالمركب، ومن العسير جدا أن أناور فى تلك الظروف، وأتجه نحو القارب، أو أصل إلى سفينة الشحن، خروجاً من هذا المأزق.

مضت ساعات صعبة على النفس، قاسية مؤلمة.. فهذا صديقى يقترب من الهلاك، وهؤلاء الثلاثة الشجعان يتعرضون للخطر من أجل تقديم عون إنسانى نبيل. وأخيرا وصلوا بسلام، يحملون معهم كمية من النبيذ والفاكهة

والخضروات. وهذا هو السلوك المهذب الحميد لرجال البحر. بعد أن تبادلنا التحية والشكر والتمنيات الطيبة، حملوا صديقى معهم، وعادوا إلى سفينتهم، التى تضم بين طاقمها طبيباً.

أحسست براحة نفسية كبيرة بعد الخلاص من تلك المشكلة، التى أرَّقتنى بضعة أيام، وانتهت على هذا النحو. وما إن بدأت أستعد للاسترخاء، وإضاءة الأنوار مع دخول الليل، حتى ظهرت لى على مقربة سفينة شحن أخرى، داخلنى الشك فى اتجاهها نحوى. أسرعت إلى جهاز اللاسلكى، وعلى الموجة السابقة نفسها. إنها مركب شراعى فى الطريق إلى الشمال الشرقى: «هل ترانى على شاشة الرادار عندك؟.»

مضى وقت غير قصير قبل أن يجيبنى بلغة إنجليزية مفككة تدعو إلى الضحك: أنا مركب يونانى..... سفينة شحن.

تبادلنا الحديث، وأخبرته عن شهامة رجال «مون ـ كالم»، وما فعلوه إزاء صديقى المريض؛ فأخبرنى بلهجته المفهومة بصعوبة:

ـ أوه!. سوف يقابلك طقس سيئ هذه الليلة. وأنت بمفردك..... ثم ساد صمت طويل قبل أن يقول لى:

ـ سوف أصلى وأدعو لك الليلة!.

كان هذا رائعا! ومدهشا!. «سوف أصلى وأدعو لك الليلة».. فلا أحد يعرف على الإطلاق مدى قوة تأثير الطقس السيئ. أحيانا تخبرنا محطات الأرصاد الجوية مقدما، لكن ما يحدث لا يكون دائما على نحو ما تذكره!.

على الأرض اليابسة، يستطيع المرء أن يتابع رحلته بزهو، ولو فى تسلق الجبال، وهو يعرف تماما كيف ستنتهى. أما فى البحر، فهو دائما على استعداد لمواجهة نوع ما من الأخطار، ومن المستحيل أن يختار بكل الثقة والتحديد برنامجه مفصلا.

وفى البحر مناطق عظيمة الخطر، ويستعد لها المرء من مسافة ألفى ميل. وعلى بعد أربعة أو خمسة كيلو مترات فقط من حدود تلك المناطق الخطرة تعبر المراكب والسفن بسلام، وفى هدوء، وهذا أمر عجيب!.

وفى البحر، تأتى على المرء أحيانا لحظات، أو ساعات، يشعر فيها بالعجز الكامل عن السيطرة على المركب، فيظل تحت رحمة العوامل المحيطة به.. فالعاصفة مثلا لا تعنى فقط هياج البحر، أو ارتفاع الموج، وإنما أيضا تعنى إصابه المركب «بحالة من التمرد أو العصيان»؛ فلا تستجيب لأى توجيه أو سيطرة، وفيها يظهر ضعف الإنسان، وعجزه وحيدا فى خضم هذا الوحش الهائل الرهيب، وعندئذ يترك مستحدثات العلم والتكنولوجيا المتقدمة، ويستسلم لرحمة الله، حين يتنازعه الإحساس بالخوف، والاعتراف بالضآلة والعجز....

على اليابسة، وحتى فى أشد الأوقات كآبة وسوادا، لا تتوقف الحياة، بل تعود وتبدأ من جديد، فى الغد، أو بعد الغد، أما فى البحر أثناء العاصفة، فلا يشعر المرء إلا بالحصار، والوقوع فى الفخ إلى الأبد. لايدرى ماذا يفعل، ولا أين يتجه، ويصبح «المستقبل»، ولو بعد ساعة، خارجا عن نطاق الإنسان وقدراته. إنه حقا يراقب، ويحاول، ويجتهد، لكن القلق يتصاعد إلى الذروة. والعطل البسيط فى آلة من الآلات الضخمة فى السفن، كما فى المراكب، يجُر إلى سلسلة من الأعطال، وتأتى «المصائب» جملة، وعندما تتلف آلة أو جهاز فى المركب الشراعى، يتحول الموقف إلى مأساة تقترب من الكارثة، إذ إن المفروض أنها تعمل بكفاءة، وبأحسن قدراتها فى مثل هذه الظروف. إنها ساعات صعبة نفسيا وعمليا معا. ولهذا.. فإن البحر يعلم الكثير، ومن أهم دروسه المستفادة: الصبر، ورجاء الحظ. يضاف إلى ذلك: التيقظ الحذر، فإن خطأ واحدًا يُرتكب فى اختيار الشراع أو الطريق، أو السرعة، أو زاوية الانحراف... تكون نتيجته فى غاية الخطورة، وربما الهلاك. وفى مثل هذه الظروف الصعبة، لا يشعر المرء بالجوع، ولا تأتيه الرغبة فى طعام أو شراب،

وربما طوال اليوم والليلة يكتفى فقط ببعض أقراص الفيتامين، أو علبة من طعام محفوظ سريعة التناول. ولا أحد يعرف متى تنتهى الأزمة.

والعدو هو الإجهاد الشديد، وإنهاك القوة. من الواجب المحافظة على الطاقة الجسمانية، وانضباطها لأطول فترة ممكنة. وهذا يعنى السيطرة على المركب، وإلا فالهلاك محتم. تلك مسألة تفكير شديد، وسكينة النفس، والتصرف بحكمة، وتقدير ما يحدث تقديرا سليما متزنا، أو بمعنى آخر.. أن يظل المرء «قائدا» حتى النهاية. وهذا هو الفرق بين الطقس العاصف الذى فيه يسيطر المرء على نفسه وعلى المركب، والطقس السيئ الذى فيه يضعف ويستسلم.

أحيانا، تهجم أمواج ضخمة تختلف عن المعتاد، وتُرى قادمة من بعيد، وقد يبلغ ارتفاعها ثمانية عشر مترا. وتزداد خطورتها إذا كانت المسافات الفاصلة بينهما متقاربة. إن قوة البحر مثل قوة الرياح، لا حدود لها. ويقال إن الموجة التالية من هذا النوع هى القاتلة: فالأولى تهجم، والثانية تتلف المركب، والثالثة تغرق.

وأثناء العاصفة، كل شىء يتصادم، وبعنف مخيف، وليس أمامك إلا الماء والهواء، ولا شىء سوى ذلك. أطنان من المياه تعلو فى الهواء، ثم تهبط بشدة فوقك. وتصبح المركب كأنها قطعة من الخشب، تعلو، ثم تسقط، والخوف كل الخوف أن تنشطر إلى جزئين. فى العاصفة، لا مجال للهو أو الراحة على الإطلاق، فالمقارنة بين قوى الصراع غير مجدية، لأن الفروق هائلة.. لكننى أهوى مواجهة العاصفة فى البحر، ما دامت المركب فى حالة ممتازة.. فأرقب الموجة العالية قادمة من بعيد، وسرعان ما يضطرب كل شىء حولى، يضرب ويصدم ويعوى بصوت يثير الفزع، لكن المركب تعلو وتنساب فوق الموجة، فهى خفيفة، كأنها تطير فى الهواء؛ فأهتف: «رائع!. هذا رائع!»... إنها لحظات حقا ممتعة. أشعر أننى فى حصن آمن، وكأن ما يجرى حولى إحدى تراچيديات فاجنر، كأننى أطير، فالمركب هى أنا، وهذا مدهش.

عندما أعود إلى الشاطئ يُخيَّل إليّ أننى فى قاعة سينمائية ضخمة تعرض فيلما ذا ثلاثة أبعاد، مجسما، بكل الألوان والأشكال، وصيغ الحياة. أعود إلى الأرض بعد عدة شهور متواصلة، لم تر عيناى فيها إلا مئات الدرجات من اللون الأزرق، فى البحر، وفى السماء، أما اللون الأحمر، فلا يرى إلا عند الغروب، فإذا دخلت غرفة، رأيت خليطا من الألوان: أصفر، وأخضر، وأزرق، وأحمر، وبنيـًّا، وأسود.

فى الشارع تلبس النساء ألوانا فى مثل قوس قزح. أعود، وليس فى أنفى إلا رائحة البحر، يغلب عليها اليود والملح، فأجد على الأرض خليطا من روائح الأدخنة والأشجار، والعرق، والأطعمة، ومختلف العطور لكل مستويات المجتمع، والزيوت، والمركبات الكيمائية، والجلود، والحقول، والبلاستيكات... هذا نوع من الجحيم... وآلاف، بل ملايين الأصوات والكلمات تهجم على الأذن. وبعد شهور من الصمت، أجدنى مضطرا إلى الكلام، فتخرج الكلمات أحيانا متقطعة، مبهمة، خافتة..... وإيقاع الحياة على الأرض مختلف. وهذا محير.. حتى فى التعامل مع النقود.

فى البحر، أعيش بإيقاع يغلب عليه الانتظام والهدوء، وبدافع ذاتى المحور، دون أى تدخل بشرى من الخارج. إن كل إحساس، وكل انفعال، وكل إدراك، يكون قويا، واضحا، حاداً قاطعا، لا تشويش فيه، ولا اضطراب، أو إبهام، وفق منهج أو نظام بسيط فطرى. ولذلك.. لا تجد بحارا راجعا من رحلة طويلة فى البحر يثرثر، أو يكثر من الكلام فى بداية العودة!.

يوم أن غضبت القديسة

الناس يغضبون.. فالغضب فيهم ركيزة وغريزة وطبيعة. ومَن لا يغضب فهو «بارد» خامد، خامل أو مريض. وفى مواقف الغضب الصائب المتصاعد، يُكشف ما فى الناس من قوة أو ضعف، من شجاعة أو خوف، من حكمة أو رعونه، من حلم أو حمق. ويأتى القياس من سؤال الناس: متى ولماذا تغضب؟، أين وكيف يستثمر هذا الغضب؟.

الشرفاء الصالحون يغضبون، ولغضبهم باعث، وقيمة، وأسلوب، ومعنى. والأشرار المفسدون يغضبون، ولغضبهم دافع، وحيلة، وجنوح، وقسوة.. فشتّان بين غضب وغضب.. فغضب هؤلاء إنعام ورحمة، وغضب أولئك فجور ونقمة. وكل مُيَسَّر لما خُلق له.

الرياح تغضب: فتثور عاصفة عاتية. والسحب تغضب: فتنهمر سيولا دافقة مُهلكة. والأنهار تغضب: فتفيض مياهًا غامرة كاسحة. وطبقات الأرض تغضب: فتهتز مزلزلة مدمرة.. فيجدُّ علماء النفس والأخلاق والطب والأحياء والفيزياء والأرصاد وطبقات الأرض (الجيولوجيا)، يكتشفون ويفسرون وينظرون ـ كل بأسلوبه وأدواته ـ أسباب ذلك كله، ومظاهره، ونتائجه، وتوقعاته، لعل البشرية تنتبه وتحذر، أو تنجو ـ ولو قليلا ـ من ويلات الغضب وكوارث جموحاته.

بين هؤلاء الأساتذة العلماء مَنْ لا يروق له استعمال كلمة الغضب مع الرياح، والسحاب، والأنهار، والبحار، وطبقات الأرض، لأنها فى تقديرهم ـ

بحق ـ ظواهر «طبيعية» لها أسبابها ومبرراتها، وإن كانت أحيانا لا تبلغ اليقين القاطع. وأهل الإيمان والعقيدة لا يجادلون فى صحة تلك الأسباب والمبررات، ما دامت لا تصادم العقل الراشد، والمنطق السديد، والمشاهدة المتبصرة الواعية، إلا أنهم يضيفون: إن الكون مخلوق، وليس بخالق، وأن ما يحكمه وينظمه ويسيِّره هى قوانين مُخضعة قاهرة ليست من صنعه وتدبيره، فلا فكاك له منها، ولن يحيد أبدا عنها، إلا بإرادة الخالق القاهر الحكيم المبدع، وإن تلك القوانين ـ ما عرفنا منها، وما لم نعرف ـ لا تتبع أفكار البشر، ولا تقيم وزنًا لمزاعمهم وأهوائهم، ولا يعنيها فى شىء تقديراتهم، ونظرياتهم، وترجيحاتهم، ومناهجهم، لأن الكون وكل مخلوق فيه، من: أرض وسماء ونجوم وكواكب ومجرات، ماض هكذا بنظمه وقوانينه، قبل أن يوجد على الأرض إنسان بملايين وبلايين السنين، لا يعلمها عددًا أو بداية إلا خالق الإنسان والأكوان.

وما دام «الشىء» مخلوقًا، فهو خاضع ـ طوعا أو كرها ـ لسلطان الخالق. لذا يسلِّم أهل الإيمان والعقيدة والتوحيد تسليما كاملا بأن الكون لم يُخلَق عبثا «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين».. وأن كل شىء فى الكون المنظور أو المدرَك مطيع بفطرته ومَنْشَئه لخالقه: «ثم استوى إلى السماء وهى ذخان فقال لها وللأرض ائتيا طَوعا أو كَرها قالتا أتينا طائعين». وأن كل «شىء» فى أصله، ومرتكز كيانه، وتكوينه.. شاكر عابد مسبِّح: «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» سواء صَدَّق ذلك أهل الأرض كلهم جميعا، أم أنكروه كلهم أجمعون.

فلا ضير إذن أن يظن أهل العقيدة والإيمان أن مخلوقات الأرض والسماء تغضب، وليس بالضرورة أن يكون غضبها ـ كغضب البشر ـ دافعا ومَظهرا وأسلوبا ومعنى.. فكما أن البشر لا يفقهون تسبيحها، فلا عيب أنهم لا يفهمون فحوى غضبها، لكنهم يعرفون جيدا أنها قد تكون «أداة» تذكرة وإنذار، أو تبصرة وعقاب، وسبحان من له الخلق والأمر.

من هنا يجوز القول بأن الجبال تغضب... وتزمجر، فتثور وتتفجر. هذا أمر مخيف مفزع، لأن ثورة جبل معناها انفجار بركان.. انطلاق كميات هائلة مدمرة مهلكة من الدخان والغبار والأبخرة والغازات والحمم، أو الصخور الملتهبة السائلة فى تدفق متوهج كالجحيم. وإذا كان أهل الأرض إلى الآن مازال يروِّعهم اسم «هيروشيما» بعد خمسين سنة، لارتباطه ببداية عصر التدمير النووى بإلقاء أول قنبلة ذرية على تلك المدينة اليابانية، فإن قوة الطاقة التى تحملها رياح عاصفة، مثل الهاريكان أو التورنادو تعادل أكثر من قوة طاقة قنبلة ذرية أو اثنتين، وكذلك قوة انفجار بركان متوسط.

ظل بركان قمة جبل سانت (أو القديسة) هيلين ـ غرب الولايات المتحدة الأمريكية ـ نائما خامدا طوال مائة وثلاثة وعشرين عاما، وفجأة أخذ يتثاءب نحو ستة أسابيع، ثم انفجر غاضبا مزمجرا فى ١٨ مايو عام ١٩٨٠، مُطْلِقًا أطنانا من الدخان والغبار، بلغ ارتفاعها ستة عشر كيلو مترا، وحوَّل المنطقة المحيطة به إلى صحراء جرداء، تغطيها طبقات من القمم البركانية ومخلفات الرماد، واختفت قمة الجبل مع انفجار قوته ١٠ ميجاتون[1] أى ما يعادل قوة انفجار قنبلتين ذريتين. تطايرت كل تلك القمة الضخمة إلى ارتفاع ٢٠ ألف متر، ثم تكرر الانفجار فى ٢٣ يوليو التالى. كانت ـ كالعادة ـ كارثة!، عاشها وشاهدها وفزع لها سكان ولاية واشنطن. وهذا بعض ما ذكروه عنها، من رواية شاهدة رؤية، أو «شاهد عيان»، زارت المنطقة عقب الانفجار.

حلَّقت الطائرة المروحية فوق الحافة الشمالية الغربية للجبل. الأرض كلها، كلها مغطاة بجذوع الأشجار مُلقاة أفقيا. وهى لكثرتها وتراكمها تبدو من أعلى كالقش. والجبل ـ سانت هيلين ـ مبقور البطن، تتصاعد منه أدخنة مخيفة. هذا الفُرن الهائل المتَّقِد يسيطر منظره على سلسلة الجبال المجاورة، وقممها هى الأخرى بركانية. وقد تُطلق من جوفها فى أية لحظة ألسنة القذائف الملتهبة.. فالأجهزة القياسية تسجل كل يوم هزات أرضية.

(١) الميجاتون: قوة انفجار تعادل مليون طن من ثالث نيتريت التولوين (TNT).

أسفل الجبل يجرى نهر «توتل»، يحتضر مختفيا، بما يملؤه من المخلفات، والشظايا، والحطام المختلط بالطين الأسود من أثر الرماد. إنه منظر مروع، بعد أن كان من أيام قلائل من المشاهد الجمالية فى ولاية واشنطن، ولما كان فيه من غابات خضراء ومساقط مياه لامعة بيضاء، فكان موقعا مفضلا لأولئك الذين ينعمون بقضاء أيام وليال فى معسكرات صيفية، يمرحون ويفرحون فى الأعالى بين الصيد، والسباحة، وتسلق القمة، والاستمتاع بالخضرة والماء و. . .

خفضت الطائرة من ارتفاعها، فأخذت ملامح الصورة البشعة تتضح: أحسست كأننى انقطعت عن العالم، ودخلت فى عالم آخر. . لا أثر للحياة فى هذه الصحراء الرمادية القاتمة، الرخوة، المليئة بالجروح المفتحة، الغائرة، البنية اللون. من حولها يسود اللون الرمادى، وأكداس الجذوع الممزقة تدعو إلى الرثاء، غارقة فى المياه والوحل، تنبت فوقها أشباح الموت.

إنه منظر يذكّر بالصور الأولى التى التقطها رواد الفضاء من فوق سطح القمر: صخور رمادية، أحجار مستديرة، ثقوب وحفر، دعامات زرقاء ضاربة إلى الخضرة، تربة موحلة مخططة تعترضها نتوءات. إنها باختصار نتيجة تحرر قوة تعادل ضعف قوة الطاقة المتحررة من انفجار قنبلة هيروشيما. لا ترى العين أى أثر للحياة، ولا الألوان.

الحرارة المنبعثة من الأرض تجعل الطائرة المروحية (الهيليكوبتر) تقفز كما يَجْفل الفرس، لأنها تثير موجات هوائية مضطربة صاعدة، قال الطيار: «إنها ٤٠٠ مئوية»! ثم أضاف: «من هنا يبدأ العذاب»!.

تقدمنا، واقتربنا من القمة. نفس المنظر يتكرر حولها. الشكل الخارجى للجبل مغضَّن مثل وجه عجوز تملؤه التجاعيد.

ـ انظر. . ما هذا؟.

ـ لوح معدنى منبعج يبرز من بين الدمار. كان جزءا من كوخ.

ـ وتلك الكتلة المتوهجة القريبة منه؟.

ـ تلك سيارة. بالمنظار المقرب شاهدنا داخلها ثلاث جثث مسلوخة مثل الدجاجات المذبوحة، شوهتها الحرارة الشديدة فى لحظة، قبل أن تُتاح لها فرصة للفرار.

اقتربنا أكثر نحو الفوهة البركانية. محيطها الصخرى يتمزق، يغلفها دخان أبيض. اقتربنا أكثر وأكثر. رائحة الكبريت غالبة، نفاذة. من داخل فتحة جانبية واسعة تتصاعد كتل من الأبخرة الحلزونية الشكل تتدافع نحو السماء. الفوهة من الداخل تغلى. إنها عين الجحيم. حرارة الجو داخل الطائرة شديدة لا تطاق.

ـ أنا لا أرى حممًا بركانية.

ـ لا، إنها لم تخرج بعد من الفوهة. سوف تظهر عما قريب. هذا ما يتوقعه علماء البراكين، وقد صرحوا به أمس.

الأرض مزدحمة بالكتل الصخرية . تبدو رخوة، مستديرة، كثيرة الثقوب، تخرج منها أدخنة، لكنها ليست حمراء اللون مثل فوهة البركان من الداخل. سألت مرافقى الأمريكى بالطائرة، فأجاب:

ـ هناك أماكن من الجبل بها صخور حمراء متوهجة، لكنها لا تُرى من هنا.

حلقنا فى بحيرة سبيريت (أى الروح). تحولّت إلى غلاية ضخمة، تغطى الأدخنة سطحها، وكتل وشظايا الحطام. سألنى المرافق:

ـ هل ترين الذى هناك.. إلى اليمين؟

ـ لا. لا أرى شيئا.

ـ بالتأكيد. إذ لا يوجد شىء. هناك كان يعيش العجوز «ترومان»، الذى رفض أن يغادر مسكنه مثل الآخرين. لقد اختفى هو والمسكن معا، ولعل جثته الآن مدفونة تحت مائتى قدم بين الطين. فى الليلة السابقة على انفجار البركان،

تَلَقَّى المقيمون بالمعسكر الصيفى إنذارا عاجلا من السلطة المحلية بالنزوح فورا والبعد عن المنطقة الحمراء (منطقة الخطر التى حددها العلماء)، وأرادوا أن يصحبوه معهم، فقال لهم: اذهبوا أنتم، ودعونى لشأنى، فالجبل لن يؤذينى بشىء. إننى عاصرت عاصفتين شديدتين، وثلاث هزات أرضية، حطمت إحداها كل الأوانى. وفى مارس الماضى اهتز الجبل وتصاعدت منه أبخرة، وكنت انظر من نافذة بيتى، فخاطبته قائلا:

حسنا.. هيا.. أرنى ماذا يمكن أن تفعل... فلم يفعل شيئا!.

ابتعدنا بالطائرة عن الفوهة. المنظر كما هو: لا حياة. والصمت مطْبق ورائحة الكبريت النفاذة، رائحة الموت... وداخل الطائرة بدأت الحرارة تنخفض تدريجيا. ومن بعيد، بدأتْ تظهر الخضرة. أف!. الآن نتنفس!.

هناك، بعيدا، حيث أجزاء من الغابات لم تُمس، تظهر بقع بنية كبيرة. لقد تيبست الأشجار من أثر الحرارة الشديدة، وهى على بعد بضعة كيلو مترات من القمة الجبلية. قال الطيار وهو يبتعد بنا نحو مدينة فانكوفر: «لا يستطيع أحد أن يفعل شيئا مطلقا إزاء قوى الطبيعة».

فى الليلة السابقة على بشائر انفجار البركان الأول، اتصلتْ «شارلوت كينج» تليفونيا بمذيع الأخبار «ويلسون» بالقناة التليفزيونية المحلية بمدينة بورتلاند، وقالت:

ـ أشعر أننى عاجزة عن المشى. لقد فقدت توازنى: صداع رهيب يكاد يحطم رأسى. أعتقد أن البركان سوف ينفجر خلال اثنتى عشرة ساعة.

إن شارلوت معروفة ومشهورة منذ عام ١٩٧٦، عندما أعلنت أن طنينًا يتصاعد فى أذنيها، يتوافق تماما مع إشارات جهاز قياس الزلزال. وبعد يومين وقع زلزال كاليفورنيا العنيف. كما أنها تنبأت بوقوع الزلازل قبل حدوثها بثلاثة أيام فى اليابان، وكندا، وإيطاليا، والمكسيك، وألاسكا. وأصبحت نجمة» نشرات الأخبار المحلية فى ولاية كاليفورنيا، تشرح أصوات الطنين أو

الصفير الذى تسمعه، ودرجته تحدد لها إذا كان الزلزال أو الانفجار البركانى قويا أو ضعيفا. وأثبتت الوقائع المتلاحقة صحة ذلك!... إذا كان الصفير مصحوبا بآلام شديدة فى الرأس، فهذا معناه توقع انفجار بركانى.

فى السابعة والنصف من صباح ١٨ مايو، نظرتْ شارلوت إلى يديها.. الشرايين منتفخة بوضوح، نبضات القلب ودورة الدم تتزايد، وكأن القلب على وشك أن يقفز، والدم ينبثق. لم تستطع النهوض، وعندما تحول الطنين فى أذنيها إلى صفير متقطع، أدركتْ أن البركان سينفجر بالتأكيد فى الحال. وقد كان هذا ما أخبرت به زوجها فى حينه، وشرحته بالتفصيل من خلال التليفزيون.

فى الثامنة واثنتين وثلاثين دقيقة بدأت الكارثة!.

مع هزة أرضية مقدارها خمس درجات بمقياس ريختر، ترنح الجبل، ودوى صوت انفجار يصم الآذان، بقوة تعادل انفجار قنبلتين ذريتين، فاندفع تدفق الغاز وفتات الصخور مع اللهب والغبار إلى ارتفاع ٢٠ ألف متر. انسحقت وانمحت ثلاثة أرباع القمة من الواجهة الشمالية، مكونة فجوة، اتساعها ثلاثة كيلو مترات طولا، وكيلو متر ونصف عرضا، وبلغت درجة الحرارة الجهنمية ٢٧٩ مئوية، أذابت طبقات الجليد فى الحال، وحولتْها إلى سيول هادرة متدفقة تكتسح كل ما يعترض طريقها، يسبقها الرعب القاتل. بعد بضع دقائق كانت «بحيرة الروح» ـ سبيريت ليك ـ تغلى من شدة الحرارة، تملؤها الصخور الملتهبة والحطام المدخن.

اقتلع الانفجار كل الأشجار، والبيوت، وفتك بكل الحيوانات والبشر فى دائرة قطرها ثمانية عشر كيلو مترا حول القمة. وتطايرت كتل من اللهب إلى الغابات المجاورة، فأشعلت حرائق، عجزت فرق الإطفاء عن السيطرة عليها، مع تقدم الحرائق وانتشارها. وكان لابد من إغلاق الطريق السريع بين مدينة بورت لاند، ومدينة سياتل. والحيوانات التى نجت من الانفجار أو الحريق،

أفزعتها الصدمة؛ فتجمدت بلا حراك فى أماكنها، جاحظة العيون، متسعة الحدقة، وسرعان ما طَوَتْها كتل الطين.

تصاعدت من فجوة القمة أعمدة حلزونية ضخمة سوداء ورمادية من الغبار والأبخرة، وغطت الوادى بأكمله، وتفجرت أيضا كتل الطين، وتناثرت فى حجم كرات التنس؛ فاتشحت السماء بالسواد، وبدأ الغبار يتساقط، تصحبه رائحة الغاز، والموت. وصنعت السحب المتصاعدة إلى ارتفاع شاهق فى الجو، غشاء قاتما، حجب أشعة الشمس، فانخفضت درجات الحرارة فجأة خارج دائرة الجحيم حول الجبل، وانسابت السيول نحو النهر. ومع امتداد شاطئيه، جرفت الأوحال الساخنة المدخنة كل شىء فى طريقها، وبلغ ارتفاعها بين ثمانية وعشرة أمتار، مكتسحة البيوت، والقوارب، والسيارات والأشخاص والحيوانات والنباتات...

فى بعض المناطق تجمعت نفايات البركان والحطام والمياه والطين، وتراكمت حتى صنعت سدودا وبحيرات تتزايد اتساعا وارتفاعا مع توالى تدفق السيول وما تحمل، حتى إذا تزايد الضغط عليها انهارت، واندفعت المياه من جديد نحو الوادى، تجرف كل شىء فى مسارها.

اختفت الشمس كما لو كانت فى الكسوف، وأصبح منظر السحب الضخمة السوداء المتصاعدة من فوهة البركان شبيهًا بمنظر السحابة العملاقة التى أعقبت انفجار قنبلة هيروشيما. حَجَب الغبار الرؤية، وانتشرت الغازات الخانقة. يا له من جحيم!.

على بعد بضعة كيلو مترات من مركز الانفجار، أسرع السكان بالفرار، تاركين كل شىء من مال ومتاع، لكن السيول الملتهبة كانت أسرع من سياراتهم التى اعترضتها الأوحال وجذوع الأشجار المتساقطة، فهلكت أُسر بأكملها، ومات أفرادها وهم أحياء تحت كتل الطين والحطام، أو تفحمت أجسامهم داخل سياراتهم.

فى الساعة الثامنة وخمسين دقيقة صباحا، اختفى النهار تماماً، وساد ظلام ليل بارد ثقيل. وفى الساعة العاشرة صباحا بدأت فرق الإنقاذ تمارس عملها ومعها سبع طائرات مروحية (هيليكوبتر)، وفريق من علماء البراكين والجيولوجيا، فى دائرة واسعة تتجاوز مدينة «مورتون» التى تبعد عن سانت هيلين بنحو أربعين كيلو مترا، وقد غطاها الرماد تماما. وقد ذكر أحد علماء الثلاجات الطبيعية أن تأثير الغبار البركانى على الجو سيستمر سنة على الأقل، وسوف يكون ذلك واضحا مع غروب الشمس كل يوم، مثلما حدث مع بركان أجونج عام ١٩٦٣، ومع بركان كراكاتوا الرهيب عام ١٨٨٣.

فى أغسطس عام ١٨٨٣، تفجرت جزيرة صغيرة فى مضيق «سوندا» بين جاوا وسومطرة (فى إندونيسيا الآن) مُحدثة أعلى وأضخم صوت عُرف من قبل على سطح الأرض. لقد سُمع صوت الدوىّ الهائل على بعد أربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر فى جزيرة «رودريجز». وسجلت أجهزة القياس فى لندن أثر الاهتزاز الناجم عن الانفجار العنيف، وظلت تسجل وتسجل على مدى تسعة أيام متصلة عقب ذلك، إلى أن فرغت أصداء الانفجار من الطواف حول الأرض عدة مرات. وارتفعت أمواج البحر نحو مائة متر، ثم تناثرت فى كل الاتجاهات، وأطبقت على الفنارات المضيئة، وكأنها عيدان ثقاب فى جوف تلك الأمواج، وجرفت معها إلى البحر ستة وثلاثين ألف شخص من فوق اليابسة، ودفعت السفن لمسافة ثلاثة كيلو مترات، لتستقر فوق وادى سومطرة، بينما ـ على الجانب الآخر ـ تدفع السفن على بعد ثمانية آلاف كيلو متر، لكى تنفلت من مراسيها، فتمضى بعيدا عن شواطئ جنوب أفريقيا.

كان هذا بركان «كراكاتوا» الثائر المتفجر لأول مرة. وعند انفجاره أطلق عمودا هائلا من الدخان والغبار، اندفع نحو سقف الغلاف الجوى، وبلغ ارتفاعه أكثر من خمسين كيلو مترا. وبعد خمسمائة كيلو متر من البركان،

سقطت أكثر المواد كثافة، فصنعت طبقة غطّت سطح اليابسة وسطح البحر. وفى الوقت نفسه أظلمت السماء، حيث اختفى ضوء الشمس، أو تحول إلى اللون الأزرق والأخضر.

ربما شاهدنا يومًا الشمس الخضراء، لكن أحداً لم ير السماء من قبل خضراء اللون، مثلما كانت يومذاك. شوهدت بها بقع متناثرة تميل إلى اللون الأخضر المشوب بالرمادى، ثم تغيرت إلى لون الدم الأحمر القانى، أو لون غبار الطوب الأحمر القاتم، ثم تحولت فى لحظة إلى لون النحاس غير المصقول، أو إلى لون النحاس الأصفر اللامع.

بعد عشرة أيام من انفجار ذلك البركان، وعلى بعد عشرة آلاف كيلو متر أو يزيد من موقعه، كتب أحد رجال الدين فى جزيرة هاواى يقول: إن السماء قبل الظهر بدت بيضاء متوهجة، بدلا من لونها الأزرق المعروف، وحول هذه الهالة البيضاء اللامعة حلقات، أو أطواق من اللون القرنفلى، والأحمر والبرتقالى الوردى، والبُنى. ومن هنا سُميت مجموعة هذه التأثيرات اللونية البركانية باسم «طوق الأسقف»، وظلت تظهر بعد ذلك فى العامين التاليين نتيجة لنفس سُحب الغبار الدقيق الذى جعل غروب الشمس حول الكرة الأرضية كلها براقا لامعا.

كما سجلت التقارير: «تحوّل لون الأفق الغربى لمنتصفه كله تقريبا إلى اللون النارى القرمزى. ومع مرور الوقت، فقدت المناطق الشمالية والجنوبية من الأفق بهاءها وتألقها، وتقلصت ألوان الليل الرمادية، بداية من الناحية الشمالية، وبسرعة. أما ناحية الشرق، فقد ظل اللون الرمادى كما هو عادة، وأعتم الجنوب، ثم ظهر توهج قادم من ناحية الغرب يشبه توهج حديد الصلب الأبيض الملتهب، ازداد احمراراً وهو يتصاعد نحو الذروة». فى الشتاء التالى، كان الأهالى فى لندن وباريس - رغم البعد السحيق عن موقع انفجار البركان - يقرؤون الصحف بالطرقات ليلاً على ضوئه.

فى منطقة تقلبات الطقس بالطبقة السفلى من الغلاف الجوى، تلاشى الغبار بكل أحجامه تدريجيا خلال فترة تقرب من أسبوع، بينما ظلت العوالق فى الطبقة العليا (الاستراتوسفير) لزمن أطول. واستمر الغبار زمنا أطول وأطول فوق القطبين.

وبعد ثورة بركان «جونونج أجونج» فى جزيرة بالى (إندونيسيا) عام ١٩٦٣، أظهرت عينات جمعتها طائرة استكشاف بالارتفاعات العالية، أن هناك منطقة تتميز بتركيز جزيئات الغبار، على ارتفاع بين عشرين وخمسة وعشرين كيلو مترا من سطح الأرض، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم : طبقة الهواء الشمسى.

مغامرات اكتشاف القطب الشمالى

من الناس من يدخل فجأة من بوابة التاريخ بلا توقع أو انتظار. ومن الناس من يُمهد له التاريخ، فيعده على مهل، ويوجه مساره، وإن اعترضتْه مصاعب وأخطار.

إن منطقة القطب الشمالى ـ قمة سقف العالم ـ ظلت لسنوات طويلة، ومازالت حتى اليوم، تشغل خيال ورغبة المكتشفين والمغامرين والعلماء. ولكم بذلوا من أجل تحقيق تلك الرغبة الكثير من وقت وجهد ومال وتضحية؛ فنجح بعضهم وخلده التاريخ، وفشل آخرون بعد طول صبر ومعاناة ومشقة بالغة. ومنهم من هلك واختفى أو اندثر تحت طبقات الجليد التى لا ترحم ولا تعبأ بأحد ولا تلين.

إنه القطب الشمالى: هدف العلماء، وحلم المغامرين، وغُنم المكتشفين، وهو المتحدى الصامد الصامت لأهل الأرض أجمعين. لا يفوقه صلابة وصرامة وقسوة، إلا قرينه فى الطرف الآخر من الأرض: قطب الجنوب.

قبل أن نتوقف قليلا مع قصة من نجح من المغامرين المكتشفين فى الوصول إلى القطب الشمالى سيرا على الأقدام وعلى الزحافات، نلقى نظرة على ما سجله التاريخ للرواد الشجعان الأوائل:

* فى عام ١٨٩٣: يكتشف المهندس السويدى آندر ANDRE بعض المنطقة القطبية الشمالية، وهو فى بالون هوائى.

* ١٨٩٥ الإنجليزى فردريك جاكسون Jackson يكتشف جانبا من تلك المنطقة، يطلق عليها: أرض فرانز جوزيف.

* ١٩٠٩ المكتشف الأمريكي روبرت بيرى R.Beary أول إنسان يصل إلى القطب الشمالى.

* ١٩٢٦ الأمريكيان فلويد بينر F.Benner، وريتشارد بيرد Pyrd يحلقان بطائرتهما فوق القطب الشمالى.

يتبعهما فى العام نفسه بالمثل: الأمريكى لينكولن السوورث L.Ellsworth، ثم المهندس الإيطالى أمبرتو نوبيل Um. Nobil.

إن «قصة» روبرت بيرى مع القطب الشمالى تثير الدهشة وتسر النفس، وتنزع الإعجاب، ولأنها حدثت بالفعل ـ ليس فيها خيال مؤلف أو حبكةفنان ـ فهى جديرة بالدراسة والتأمل، لما تنطوى عليه من شواهد ومشاهد: شواهد على روح العصر، وأساليب فى مجتمعات البشر،وأشكال من الحياة، ومشاهد من تطلعات الإنسان وطموحاته، وقدرته على تحقيقها والتكيف معها والإعداد لها، بعزيمة وإصرار وفكر وشجاعة وصبر وجَلَد، وإن كان قليلَ ـ بل معدوم ـ المال، مغمور الحال، وقديما قال أبو الطيب المتنبى:

على قدر أهل العزم تأتى العزائـمُ

وتأتى على قـدْر الكرام المكارمُ

وتعظُم فى عين الصغير صغـارها

وتكْبر فى عين العظيم العظائم

إنها ـ بحق ـ درس عظيم للشباب!...

سوف نوجز «قصة» رحلته الأخيرة إلى القطب، وهى من أعجب وأطرف الرحلات التى أنجزها إنسان، وذلك من خلال يوميات بيرى ذاته، التى سجلها بقلمه يوما بيوم أثناء تلك الرحلة. والمدهش، أن هذه اليوميات ظلت سرا دفنيا فى الأرشيف القومى للولايات المتحدة الأمريكية خمسة وسبعين عاما من بدايتها، ولم يُنشر شىء عنها إلا فى عام ١٩٨٨!....

لكل فتى ـ أو فتاة ـ رغبة، أو طموح أو تخيل: ماذا يتمنى أن يصبح فى المستقبل؟. رغبات وطموحات وخيالات قد تتشابه أو تتقارب، وهى لا تخرج بعيدا عما يجرى فى دنيا الناس ـ أما أن تكون الرغبة الوحيدة والمؤكدة لغلام صغير يعيش فى بيت الأسرة المتواضع فى بنسيلفانيا، أن يكون أول من يصل إلى القطب الشمالى ويقفز إلى قمة الشهرة والمجد، فهذا ليس مألوفا ولا متوقعا من أحد على الإطلاق!، لكنه حدث بالفعل مع روبرت الصغير الذى عاش حياته كلها من أجل هذا الحلم، وهذا الهدف، لا يحيد عنه، لا يرجو سواه.

ولد فى ٦ مايو عام ١٨٥٦. بعد ثلاث سنوات يموت أبوه، شارل، فتتكفل أمه ـ ميرى ـ الحزينة الضعيفة برعايته، وتمنحه كل ما تملك من حب وعطف وتضحية، عوضا عن فقد الأب، وعن قلة المال، تتحمل آسفة باكية إعراض الأهل، وتنتقل لتعيش فى أماكن أقل من متواضعة لكى تكون على مقربة من مدرسته ثم كليته بولاية «مين» بأقصى الشمال الشرقى، وهو يرقبها حزينا صابرا صامتا، وفى قرارة نفسه يتعجل اليوم الذى يستطيع فيه أن يرد إليها بعض ما قدمَتْ من معروف وفضل، وأن يهديها ـ هى وحدها ـ مذاق الفرحة باسم تعتز به وتُفاخر بين الأهل وبين الناس.. كل الناس. «صبرا يا أمى! الغد العظيم يقترب». يقولها كل ليلة بينه وبين نفسه، ويجتهد روبرت فى مدرسته. وإلى أن تتاح فرصة عمل، يشغل وقت فراغه بالرياضة والإقامة أحيانا فى خيام المعسكرات، وتصحبه الأم ـ خوفا عليه ـ فى بعض رحلاته بالجبال!.

ثم لاحت فى الأفق فرصة عمل: أعلن مكتب مراقبة السواحل وقياس المسطحات فى العاصمة واشنطن عن مسابقة لاختيار رسامين معماريين، بعد فترة اختبار مدتها ستة أشهر بأجر عشرة دولارات فى الأسبوع، استعطف أمه لكى ترضى وتأذن برحيله واشتراكه فى المسابقة، فكان فراقا حزينا دامعا لكليهما. وعندما انتقل من التدريب إلى الوظيفة الدائمة، كتب فى يومياته: «لقد مات الماضى، ليحيا المستقبل».

من واشنطن يكتب إليها فى رسالة طويلة، وقلبه (يعتصر)، يخبرها عن حياته فى العاصمة، ومخالطته لرجال يكافحون بضراوة، ويتعالون عليه وعلى طموحه، ثم يقول لها: «ها أنذا فى سن الرابعة والعشرين، وماذا فعلت؟ لا شىء». ثم يشير إلى أن ما يبذله من جهد شاق فى العمل المتواصل لا يجنى منه إلا السآمة والصبر المر، ولن يصبح «إلا مجرد اسم فى كشف (قائمة) الأجور»... بينما هناك فرصة عمل فى نيكاراجوا (بأمريكا الوسطى) تحمل معها «بشائر المجد الذى يجعل اسم ابنك مرادفا لكل من أحرزوه منذ بدء التاريخ!» كانت المهمة فى نيكاراجوا الكشف عن طريق للسفن يربط بين المحيطين: الأطلنطى والهادى.

يفوز بيرى بوظيفة مهندس مدنى بالبحرية الأمريكية، ويلتحق بالهيئة التى تعد مشروع القناة المقترحة للربط بين المحيطين، ويحظى بالشهرة فى محيطه كمهندس كفء، بقدر ما نال الرضا والقبول من جوزفين ديبيش ابنة أستاذ فى العلوم مرموق.

حلم الصبا مازال متوهجا لم يفارقه.. فهو عند مستنقعات نيكاراجوا ـ مجال دراسة المشروع ـ يتخيل أرض الشمال القطبى وشعابها الجليدية وثلوجها الذائبة، ويتجسد فى ذهنه الحلم حقيقة، فيكتب من هناك إلى أمه: «إن شهرة كولومبس مكتشف العالم الجديد، سوف تضاهيها يوما شهرتى عندما أقف بقدم ثابتة عند القطب الشمالى كأول مكتشف له....».

ثم يخطو أول خطوة عملية على طريق تحقيق الحلم الكبير: فى إبريل ١٨٨٦ يقف أمام أعضاء أكاديمية العلوم القومية فى واشنطن، يتلو عليهم ورقة عمل لبرنامج بعثة كشفية، يعتزم القيام بها قريبا إلى جرينلاند، فيلفت إليه الأنظار ويكتسب احترام وتقدير الصفوة من العلماء المجتمعين. ينْجز ما وعد. ويصعد فى جرينلاند جبالا تغطيها الثلوج إلى ارتفاع سبعة آلاف وخمسمائة قدم على بعد مائة وخمسين كيلو مترا من الساحل.

ويكتب إلى أمه، موضحا منهاجه للمستقبل: «أولا: اسم جدير بالاحترام والشرف.. ثانيا: الاحتفاظ بالعمل فى البحرية. ثالثا: مكانة اجتماعية ممتازة.. سوف أرتبط بأصدقاء ذوى سلطة ونفوذ لأشكّل بهم مستقبلى.. لست أنانيا تماما يا أمى، وإنما أريد الآن حظى من الشهرة، بينما تسعدين أنت وتستمتعين بها».

فلما تكونت (شركة القناة البحرية) فى إبريل ١٨٨٧، اختير رئيسا لإدارة البحوث، وتحت قيادته خمسة وأربعون مهندسا: الآن ـ كما أراد ـ يصبح تحت نظر أصحاب السلطة والنفوذ. ألزمهم باحترامه وتقديره.

فى واشنطن يلتقى بـ «ماثيو هنسون» الذى سيصبح رفيق حياته ورحلاته، وباعتراف بيرى فيما بعد: «لن أستطيع المضى قدما بدونه». إن ماثيو يصغره بعشر سنين، قصير نحيل، لكنه قوى حكيم، ذو جلد وذكاء، وفوق ذلك قارئ واع مجد. علمه الكابتن «شيلدز» كيف يقرأ ويكتب، ثم صحبه معه فى رحلاته الاستكشافية فى البحر، فأجاد وتآلف مع حياة البحار، لكنه لم يكرس نفسه لها، وكأنما كان القدر يؤهله لمساعدة مكتشف آخر. يأخذه بيرى معه إلى نيكاراجوا مساعدا له: فهو يصمم ويرسم الخرائط، والقطاعات، ويسجل المستويات، ويختبر معه كل أجزاء الطريق المقترح لشق القناة من المحيط إلى المحيط، ثم ها هو بيرى يصبح من المرموقين فى مجتمع الصفوة، فلا يجد حرجا أن يصرح لمراسل النيويورك تايمز: «إننى أرتقى بنفسى، وأكتب اسمى أمام العالم».

من الآن فصاعدا، سوف يجر النجاح وراءه، بقدر ما يحمل من تصميم وعزم، وما يبذل من جهد، مع رصيد مرحلة حياته السابقة. توافق الشركة على قبول دراسته للمشروع واختباراته، وتضمن حقوقه وامتيازاته، وتبدأ التنفيذ العملى للمشروع، ولكن لاح فى الأفق مشروع آخر بديل: قناة پاناما. يستقر الرأى النهائى على تنفيذه فى تلك الأثناء. فى أغسطس ١٨٨٨، يتزوج

جوزفين، ويرحلا معًا - بصحبة أمه - إلى شاطئ نيوجرسى لقضاء شهر العسل. وتكتب «جو» - العروس - إلى أمها: «إذا كان بيرى فى مثل ما أشعر به من سعادة، فنحن إذن أسعد زوجين فى العالم»، لكن السعادة مسألة نسبية، وأحيانا وهمية.. فإن ما يشغل ذهن وخيال زوجها يتردد مع كل نفَس من أنفاسه، ولابد أن الزوجة الشابة لاحظت مرتفعات جرينلاند الجليدية، عبر الطريق القصير الذى كان بيرى يعد نفسه لاجتيازه، فيعقد العزم على اكتشاف شمال شرق جرينلاند عبر طريق أطول وأشق.

مايو ١٨٩١: يمنح أجازة مدفوعة الأجر لمدة ثمانية عشر شهرا للقيام بأول محاولة لاكتشاف القطب الشمالى. لقد أتم سن الخامسة والثلاثين، تلك السن التى عندها يبلغ معظم المكتشفين قمة نشاطهم وحيويتهم.

كانت هذه الرحلة (فى يونيو ١٨٩١) هى البداية. وعلى مدى أحد عشر عاما من المعاناة بعدها، يخرج بيرى فى ثلاث رحلات كبرى إلى ما اعتبرها منطقته المألوفة: جرينلاند وجزيرة الزمير، يقضى فى ربوعها الجليدية سبع سنوات وأربعة أشهر، ويقطع فى أسفاره بها أربعة عشر ألف كيلو متر، ومعه كلاب الجر. إنه حقا عمل شاق وجهد غير مسبوق، جدير بالتقدير والإكبار لأشجع وأفضل مسافر قطبى فى عصره. ومع ذلك، لم يتوغل داخل المحيط بالمنطقة القطبية الشمالية لأكثر من مائة وعشرين كيلو مترا تقريبا. ورغم الخبرات الجديدة تماما فى ظروف صعبة للغاية، فإن سبعة من المغامرين والمكتشفين لم يتركوا له سوى خمسمائة كيلو متر لم تُكتشف بعد.

فى الرحلة الأولى من تلك الثلاث، لعب ثلاثة أشخاص أدورا رئيسية فى حياته: أولهم ما ثيوهنسون، الذى تأثر بيرى كثيرا بذكائه وإخلاصه وموهبته. والثانى، الطبيب الجراح فردريك كوك الذى عالج بنجاح قدم بيرى التى انكسرت لاصطدامها بعنف بذراع الدفة الحديدية الصلبة، والثالث: الزوجة، جو أوجوزفين، التى تولت تمريضه بعناية شديدة حتى شفى، ولكن للأسف،

انتقلت العلاقة الطيبة بين بيرى وكوك ـ الذى شاركه رحلة حياة أو موت فى مغامرته الأولى ـ إلى مشاكسة، ثم إلى كراهية. وهو ما حدث بعد ذلك مع كثيرين من رفاق الرحلات التالية إلى القطب. لقد كان بيرى منظما ومخططا ممتازا، لكن شغفه الشديد بالشهرة، لم يسمح له بأن يعطى حق الآخرين.

قطع أكثر من ألفى كيلو متر عبر المنطقة الشمالية الشرقية الجليدية الشاقة المجهولة آنذاك، ولم يستطع أن يواصل تلك الرحلة، لأنه لم يعثر على ثور يأكله، فخشى الموت جوعا. وفى هذه الرحة وضعت جو طفلتهما الأولى «ميرى أهنيغيتو»، (أى: طفلة الثلوج بلغة الإسكيمو). والحق أن جو ـ الزوجة والأم ـ كانت فى غاية الشجاعة والمساعدة وحسن الصحبة، وقد شهد لها بذلك.

الرحلة الثانية، فى عامى ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤، كانت مأساة قاسية: المرض، وآلام التجمد، والعواصف الثلجية القارسة. ورغم ذلك.. اندفع بيرى بمن معه للتقدم ومواصلة السير، خلاف ما يقضى به العقل والرأى السديد، إلى أن تفشى مرض فى كلاب الجر، قضى على معظمها؛ فاضطر إلى العودة.

ثم رجع ليعيد الكَرة برحلة ثالثة عبر جرينلاند قطع فيها نحو ثمانمائة كيلو متر عسيرة مؤلمة، ولم يبق من كلابه الاثنين والأربعين سوى أحد عشر، وانتابته آلام مميتة فى ظهره، ولم يجد عزاء إلا فى رسالة تلقاها من أمه، تقول له: «إذا لم تحقق بعد كلَّ ما كنت تأمله، فلا تحزن ولا تيأس... فكثيرون قبلك فشلوا...».

قوبل بيرى بالترحاب والتهليل، لأنه حقق بعض الاكتشافات العلمية، خاصة فيما يتعلق بالطقس، ومصادر الحديد الثرية لدى الإسكيمو، بل إنه أحضر معه أربعة وثلاثين طنا متريا من صخور النيازك، حملها فى سفينته، فكان عملاً فذا أفاد العلماء فى مدينة نيويورك.

ظل الطريق إلى القطب الشمالى مسدودا فى وجهه. لابد من

البحث عن مسلك جديد. لم ييأس، ولم يتراجع، وتذكر مقولة «سينيكا»[1]: «سوف أجد طريقا أو أصنعه». ورغم الآلام الشديدة نتيجة الجروح فى قدميه، فإن قلبه وفكره ونظره ظلوا جميعًا معلقين بالشمال، بالقارة القطبية، ويردد على الدوام: «رغم كل شىء، لابد من دفعة نحو الشمال». ثم كانت مؤازرة طيبة، ومؤثرة، أن يكوِّن أصدقاؤه «نادى بيرى القطبى»، ويُرزق بطفلة ثانية: فرانسين.

كان لابد من مضاعفة الحزم والحماس، بعد أن تلقى أنباء عن محاولات «آخرين» الجادة لبلوغ القطب الشمالى. فى الثامن من مارس ١٩٠٠ يعْبر - مع هنسون - لأول مرة المحيط القطبى الشمالى، يشق طريقا جديدا لم يسلكه أحد قبله، لكنه يتراجع بعد فترة، حيث كانت الكتل والجبال الجليدية العائمة المترصدة أشق وأخطر مما كان يتصور، ثم يعيد المحاولة: بين العاشر من يونيو ١٩٠٠ إلى الخامس من إبريل ١٩٠١ لم يستطع أن يقطع فى هذه الشهور العشرة أكثر مما قطع فى المحاولة السابقة، وفى طريق أبعد إلى القطب، فعاد مهموما إلى قرية «فورت كونجر»، ثم خرج منها فى رحلة تالية، وقطع نحو سبعين كيلو مترا فى ثمانية أيام، ثم اضطر إلى العودة. لاشك فى أنه صار مكدودا، مكروبا يكاد أن يكون محطما.

فى طريق عودته يتوقف ليقيم فترة فى كوخ بميناء «دورفيل» للاستراحة بين الإسكِيمو، ويتلقى رسالة من زوجته تشكو من أنها لم تتلق منه أية رسائل منذ تسعة أشهر، وتواجهه بما بلغها عن علاقته بامرأة من الإسكيمو - أليكازينا - وإنجابه طفلا منها، ورسالة من أمه تبدى أسفها لما سمعته من أخبار محزنة «عما تعانى من متاعب وآلام، وما حدث من بتر وتشويه فى قدمك.... آه يا بنى!، عد فورا إلى بيتك، ودعْك من تلك الملاحقة..». ثم يتلقى رسالة

---

(١) سينيكا: (٤ق.م - ٦٥ بعد الميلاد) كاتب تراجيدى مسرحى رومانى وفيلسوف رواقى، ورجل دولة سياسى. يجمع فكره بين العاطفة والعقل، وتشير مسرحياته إلى انتصار الشر على روح الإنسان الفرد. مازالت تسع من مسرحياته تمثل إلى الآن، منها: «ميديا»، «فيدر»، «أجا ممنون».

أخرى من جو: «ابنتنا المحبوبة الصغيرة التى لم ترها قط، اختطفها الموت منى بعد شهور من مولدها.. آه يا زوجى، يا حبيب قلبى، ليتك كنت معى لنتقاسم الأحزان، ولكن وحدى، فهذا كثير، حقا كثير!».

السادس من مايو ١٩٠١، فى ذكرى يوم مولده الخامسة والأربعين تلتقى به جو ومعها ابنتهما ميرى بعد نحو ثلاثة أعوام. لم يكن أمامه بديل آخر، ثم يتلقى نبأ كان له وقْع الصاعقة: وفاة أمه.

السادس من إبريل ١٩٠٢: بيرى وأسرته ومجموعة من المساعدين يتجهون فى رحلة إلى الشمال القطبى، يكافحون باستماتة فى قطْع كتل الجليد التى تعوق مسيرتهم الشاقة. لم يتقدموا سوى مائة وعشرين كيلو مترا طوال خمسة عشر يوما. ثم يتوقف ليرفع العلم الأمريكى فوق تل جليدى، ويدوِّن فى يومياته تلك العبارة المحزنة: «انتهت اللُّعبة. تلاشى حلم ستة عشر عامًا من العمل المهلك».

لكن الرئيس الأمريكى له رأى آخر. إن تيودور روزفلت يحْدب على بيرى كرجل على شاكلته، ويريد أن ينال شرف اكتشاف القطب الشمالى بطل أمريكى، تتهيأ له الفرصة المناسبة؛ فيأمر بأن يُمنح بيرى إجازة بمرتب لمدة ثلاث سنوات، وأن توضع تحت إمرته السفينة «روزفلت»، فتبحر من ميناء نيويورك فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٠٥، وعلى ظهرها بيرى الذى بلغ التاسعة والأربعين، قبل مولد ابنه «روبرت الأصغر» ببضعة أسابيع. الآن، يشعر بيرى ـ مع حدب الرئيس، وقوة تلك السفينة ـ أن السنوات القاسية السوداء قد ولَّت إلى غير رجعة.

باتّباع استراتيجية جديدة، وأسلوب جديد، يصحب معه عددا أكبر من الرجال (الإسكيمو)، ومن الكلاب المدربة. بعد ثلاثة أسابيع من الصراع مع الجليد، يصل رأس «شريدان». وفى شهر فبراير التالى يكون مستعدا للتقدم لمسافة سبعمائة كيلو متر إلى القطب بمعدل ستة عشر كيلو مترا فى اليوم..

ويعلق مرافقه «هنسون» قائلا: «إذا شاء الله، ورضيت الرياح، والزحافات، والجليد، والثلوج، وجحيم تلك الأراضى المتجمدة»!.

لكن لم يشأ الله، فلم يَرْض كل هؤلاء!. بعد سبعة عشر يوما لم يقطعوا سوى مائة كيلو متر، بالكاد ستة كيلو مترات فى اليوم، والأرض تميد من تحتهم!، ثم واجه ما كان يخشاه: «المتاهة فى أرض شاسعة مكشوفة، تمتد شرقا وغربا لأبعد من مدى رؤيتنا الصحيح إلى القطب»، فكان أمام خيارين: إما أن يعود أدراجه، وإما أن يخاطر بحياته وحياة كل من معه. يكفيه أنه اكتشف أرضا جديدة، ومواقع جديدة، وبلغ حدا لم يسبقه إليه غيره، فوق طبقة من الجليد المتحرك: «شكرا لك يا إلهى، فقد بلَّغْتنا منطقة من خط العرض، تعتبر قياسية»، هكذا سجل فى يومياته. ثم قرر العودة إلى حيث ترسو «روزفلت»، قائلا لمن معه: «سوف نعود إلى هنا فى العام القادم».

لكن جو التى كانت تنتظر رجوعه بفارغ الصبر تستعطفه وتلح عليه: «لن أسمح لك بالرحيل مرة أخرى. إن لابنك وابنتك حقا عليك يا زوجى، يا حبيب قلبى. فكر جيدا فى الحياة التى أوْشكت على الانتهاء، وأننا فقدنا معظمها».

وكيف تدخل هِى فى تنافس مع قدره ومصيره؟. فى ديسمبر ١٩٠٦ أقامت «الجمعية الجغرافية القومية»، (التى مازالت تصدر مجلتها بتميز واقتدار حتى اليوم، وتجاوز عدد اشتراكاتها الثابتة، بخلاف التوزيع بالأسواق ثلاثة عشر مليونا)، أقامت مأدبة حضرها الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت، وقدم بنفسه ميدالية تذكارية إلى بيرى لوصوله إلى أبعد نقطة فى الشمال، محققا إنجازا جديدا، وأثنى على المكتشف الشجاع «والعمل الفذ الذى قمتَ به».. فماذا يكون جوابه على جو إذن؟. «بالنسبة لى، فإن الحل النهائى والكامل للغز القطب.. هو الشىء الوحيد الذى يجب أن يؤدَّى من أجل شرف وسمعة هذا البلد، وهو الشىء الذى ينتظر منى أداؤه، وهو الشىء الذى يجب علىَّ أن أفعله».

بعد تسعة عشر شهرا، يستقبل بيرى على ظهر السفينة روزفلت الرئيس الأمريكى، الذى جاء بنفسه للتحية، مودعا بيرى والذين معه قبل رحلتهم إلى القطب، فيقول وهو يشد على يده: «إننى أثق بك يا بيرى، وأثق من نجاحك، طالما كان فى مقدرة إنسان».

منحه الرئيس مرة أخرى ثلاث سنوات إجازة بمرتب، لكن العقبات المالية كانت قد تراكمت، خاصة بعد وفاة «موريس جزوب» أهم الذين كانوا يحمون ظهره بالمال.

وهكذا فى السادس من يوليو ١٩٠٨، بعد تأخر سنة كاملة عن موعدها، ترْحل «روزفلت» من ميناء نيويورك بين الهتاف والتهليل من الجموع المحتشدة، وصفير السفن الرأسية بالميناء الكبير تحية لبيرى ورجاله. إنها فرصته الأخيرة لتحقيق الأمل الذى ظل يراوده ويطارده طوال حياته. وماذا تحمل السفينة؟. فيها كمية ضخمة من الفحم، تكاد تبلغ حافتها، سبعون طنا من لحم الحوت، لحوم ودهون خمسين فقمة، اثنان وعشرون من رجال الإسكيمو الأشداء المتحمسين مع أدواتهم للصيد، يصحبون سبعة عشر امرأة «ثرثارة تجيد الفكاهة والطرب» ومعهن عشرة أطفال، وبالسفينة أيضا مائتان وستة وأربعون كلبا مدربا على المشى فوق الجليد. ويدوِّن بيرى مع بداية الرحلة: «يسبقنى فى هذه الرحلة حلمى، وقدرى، والهدف الذى لم يتوقف نبضه، ولم أستطع مقاومته، والذى ظل يجرفنى فى مساره ثلاثة وعشرين عاما. . . . هل سأنجح؟ هل سأعود؟».

قضى بيرى فصل الشتاء القطبى الأخير فى «رأس شريدان» يحسب متطلباته من الطعام، الذى كان ـ لا البرد ـ السبب فى فشل رحلته السابقة. وفى الحادى والعشرين من فبراير ١٩٠٩ اختار المجموعة التى ستصحبه إلى القطب، وترك الباقين بالسفينة، ثم كتب فى يومياته: «عندما أخلد إلى النوم فى هذه الساعات الأخيرة، يستقر فى اللاشعور. . أنه مع بداية الصباح سيتم سحب الخيط الذى سنطلق به آخر سهم فى جُعبتى».

فى اليوم الأول من مارس، ومع نهاية الليل الشتوى، كان أربعة وعشرون

رجلا - من بينهم بيرى ومساعده - وتسع عشرة زحافة، ومائة وثلاثة وثلاثون كلبا، يبدأون أولى خطواتهم التاريخية فوق المحيط القطبى المتجمد عند خط عرض ٨٣°م، فى اتجاه القطب.

سارت المجموعة، وفى المؤخرة بيرى لحماية ظهرها، وبعد قليل هبت ريح قطبية عاتية، أثارت ضبابا رماديا من شظايا الجليد التى تحتها من طبقته السطحية، حتى تلاشت الرؤية. ثم انقسموا إلى سبع مجموعات صغيرة، مع كل منها أدواتها وطعاما يكفيها وكلابها لمدة خمسين يوما، وتمشى بمعدل أثنتى عشرة ساعة فى اليوم، ويمشون بالتتابع، ويواجهون ما لم يكن متوقعا، وبين الحين والحين يجرُّون زحّافاتهم - لإراحة الكلاب - حتى أصبحت عضلاتهم «هشة» بتعبير بيرى، والجليد يتهشم بصوت صاخب، ويَميد من تحت أقدامهم.

فوجئت مجموعة بيرى وهى تعبر فوق مياه بحيرة متجمدة عرضها عشرة كيلو مترات بانهيار الثلوج من تحتهم، مما أخر زحفها، وأصيب بعض الإسكيمو بالمرض. تأخرت المسيرة أربعة أيام، ثم خمسة. وبدأ القلق ينتابهم والرياح تشتد، وراودت بيرى فكرة إلغاء الرحلة، لكنه تماسك... فهو الوحيد الذى يستمد منه الجميع الشجاعة والصبر والتحمل، ورؤية القطب الشمالى تزيده حماسا واصطبارا.

فى السادس من إبريل، يكتب بيرى فى يومياته بالمعسكر المتنقل: «أعتقد الآن أننى أول إنسان فى العالم يجلس على هذا الموقع المتقدم من سقف العالم»، ثم ينام قليلا، ويصحو شارد الذهن، قلقا. ويمضى وحده سيرا بزحافة القدمين بضعة كيلو مترات، ومعه علم أمريكى، ثم يتوقف لإجراء قياساته وحساباته، وبعدها يثبت سارية العلم فى الثلوج، ويدوِّن فى مذكرة يومياته: «القطب أخيرا!!!». جملة قصيرة مثيرة شهيرة!.

شعر مساعده هنسون بغُصة: لماذا مضى بيرى وحده ولم يصحبه معه فى هذه اللحظات التاريخية الفريدة؟!. إنه المساعد الذى صنع الكثير، وضحى بالكثير من أجله طوال سنوات، بما لم يفعله أحد آخر!.

يعود بيرى إلى المعسكر. ويصف هنسون حالته عند عودته: «كان وجهه ممطوطا متجهما. لم يشأ أن يكلمنى. علمتُ من الولدين اللذين كانا معه أنه يُجرى ملاحظات أبعد من القطب بكيلو مترات». ثم يتابع هنسون كلامه فى مذكراته: حسنا مستر بيرى. نحن الآن عند القطب . ألسنا كذلك؟.. لم يجُب. ظل صامتا شاردا. فتابعتُ كلامى: حسنا . لقد أحصيتُ قياسات المسافة، وحسبتُ مقدار الزمن. فإذا كنا بالفعل قد مضينا فى الاتجاه الصحيح، فإننا الآن حقا عند القطب. وإن لم نكن قد سلكنا الاتجاه الصحيح، فإنه يكون خطؤك أنت.

لاذ بيرى بالصمت ولم يجب. نزعتُ القفاز من يدى اليمنى، ثم مددتها لأصافحه مهنئا بنجاح جهد دام ثمانية عشر عاما، لكن هَبَّت ريح عاصفة أطارت قذًى غشى عينه.. فرفع على الفور كلتا يديه ليغطى وجهه، ثم أصدر إلينا أمرا بألا نتركه نائمًا أكثر من أربع ساعات».

أجرى بيرى مراسم حفل صغير عند العلم الأمريكى المرفوع فى القطب، ثم كتب يقول: «ألقيتُ نظرة خاطفة أخيرة على العلم، ثم أدرت وجهى نحو الجنوب، نحو المستقبل». ولكن كيف سيكون المستقبل لو أنه رجع بالفشل؟ لو أنه لم ينجح، فأى واجب يكون قد أداه نحو زوجته وأسرته؟ نحو الذين آزروه وساعدوه بالمال والرجال؟ نحو البحرية التى ينتسب إليها؟ نحو الرجل الذى كان شديد الإعجاب به: تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، الذى كلفه برفع العلم المخطط ذى النجوم عند موقع القطب، ليفتخر شعبه بإنجاز مهمة علمية إنسانية كبرى مُلهمة للشباب؟. لعل هذه الأفكار الضاغطة كانت تشغل ذهنه وهو فى طريق العودة، فتفسر ما كتبه هنسون فى مذكراته عنها:

«منذ ذلك الحين، أدركنا جميعا أنه يجب ألا نُكثر من الكلام مع القائد بيرى.. إذ نادرا ما كان يتحدث معى.. فشعرت بجرح فى قلبى.. لم يعد يلتفت إلىَّ كلما استيقظنا فى الصباح، وطوال زحفنا على الجليد، كما تعودنا».

بعد السير على مدى ست عشرة مرحلة، وصل بيرى وجماعته إلى رأس كولومبيا، وهناك استراحوا بالنوم ليومين، قبل أن يركبوا السفينة. فى الثانى عشر من إبريل، بعد اثنين وخمسين يوما من مغادرة تلك السفينة إلى القطب، يوقِّع على لوحة تذكارية من النحاس، رفعت فوق نصب يشير إلى اتجاه القطب كتب عليها: «القطب الشمالى، ٦ إبريل ١٩٠٩ ـ ٤١٣ ميلا».

فى طريق العودة بالسفينة جنوبا، يتلقى بيرى مجموعة من الرسائل، من بينها واحدة من جو، تقول له فيها: «إذا كنت قد أحرزت نجاحا، فإنك حقا سعيد، ولن يضيرك شىء بعد ذلك، وإذا لم تكن، فآهٍ يا أغلى وأحب الناس إلى قلبى، حاول إذن أن تكتفى راضيا وتهدأ بالا بيننا، وماذا لو أنك لم تعد؟ إننى ببساطة لن أستطيع مواجهة شتاء آخر بدونك... فيجب، حقا يجب أن تعود إلى بيتك».

يُستقبل بيرى استقبالا حافلا، ويتلقى عديداً من الميداليات الذهبية، والتهانى والشهادات الفخرية من كل أنحاء العالم، ويرقَّى إلى مرتبة العميد البحرى، والشكر رسميا من الكونجرس، والشهرة التى يبتغيها مدى الحياة، والثناء بكل أشكاله ورموزه على شجاعته وتحمله وصبره. ولكن ماذا كان ثمن النجاح؟. فى مذكرة خطية لزوجته ـ لم تنشر من قبل ـ جاء فيها:

«لن يعلم أحد مطلقا مدى تأثر زوجى بالشكوك التى وُجهت إليه من البعض حول ملاحظاته العلمية، وهو الذى كان دقيقا خاليًا من الشك فى كل شىء، وفى كل وقت طوال حياته.. إن الاستجواب القاسى الذى تعرض له بين يدى أعضاء من الكونجرس، بينما كانت ملاحظاته العلمية تُفحص ويؤخذ بها وبصحة معلوماتها التى ثبتت تماما، إن ذلك أدمى قلبه أكثر من كل الصعوبات التى واجهها وتحملها طوال ستة عشر عاما من البحث والاكتشاف فى مناطق القطب الشمالى، وهو ما هَد جسمه ومزاجه أكثر من أى شىء عالجه فى اكتشافاته».

دهمته الأنيميا الخبيثة. وفى العشرين من فبراير عام ١٩٢٠ فارقت الروح جسد هذا الرجل العجيب ذى النمط الفريد. وفى آفاق التاريخ، يرتفع نجم بيرى كرائد من الطلائع الذين أسهموا بنصيب متميز فى الإنجازات البشرية. ظل مدفوعا ـ منذ صباه ـ بفكرة آسرة، وهدف استحوذ على كل نشاطه وطاقته، وأفسح نطاق المحاولات الإنسانية الكبيرة المثمرة.

. . . .

* فى عام ١٩٩٠ نجح اثنان من شباب النرويج المغامرين المدربين على الانزلاق فوق الجليد، نجحا فى تتبع مسار رحلة بيرى، ووصلا إلى القطب الشمالى، ثم عادا بسلام.

* وفى عام ١٩٩٥ غامرت مجموعة من الشباب: من الولايات المتحدة واليابان، والدانمارك، وروسيا، وبريطانيا، باختراق المنطقة القطبية الشمالية من شمال روسيا إلى القطب، ومن القطب إلى شمال كندا (قريبا من مسار بعثة بيرى) فقطعوا مسافة تبلغ نحو ٢٠٠٠ كم سيرا على الأقدام فى ١١٦ يوما، وفى درجة حرارة متوسطة ٤٠ تحت الصفر.. صيفا!.

على هامش المغامرة:

إذا كان خطأ الجاهل هفوة قد تُغتفر، فإن خطأ العالم ـ عن عمد ـ جريمة لا تَندثر.

فى يوم من سبتمبر عام ١٩٠٩ استقبلت كوبنهاجن (عاصمة الدانمارك) دكتور فردريك كوك استقبال الأبطال بالتهليل والهتاف والموسيقى والطبول والورود. رحب به عند وصوله إلى الميناء كبار رجال الدولة ونساؤها وحشود من الأهالى، مرحّبة به، وأفاضت فى الثناء عليه كل صحف العالم بعد عودته من رحلة رائدة شاقة مضنية عبر المنطقة القطبية الشمالية.

بدا د. كوك يومها.. ممن خلف ابتسامته وبريق عينيه - وقد أتم عامه الرابع والأربعين - بدا مسرورا مزهوا مثل نجوم السينما، محاولا إظهار شيء من التواضع من خلال صوته الخفيض، وحركاته المحسوبة بدقة، وبساطته فى المظهر. إنه عائد لتوّه من مغامرة تفوق قدرات البشر العاديين، وفى ظروف جوية لا تطاق... فهو إذن بطل القطب ومكتشفه كما يقول، ومعه الصور الفوتوغرافية التى تظهره وافقا بجوار كومة من الجليد، رفع فوقها العلم، بعد محاولات فاشلة بدأت مع مغامرين منذ نحو أربعة قرون.

ها هو يسبق الأمريكى بيرى، وأبارورز الإيطالى، وأمندسن النرويجى. وهو - كوك - ليس غريبا على المنطقة، فقد سبق له أن صاحب بيرى فى رحلته إلى المنطقة كطبيب، عام ١٨٩١، وعام ١٨٩٢. وفى عام ١٨٩٧ صحب مجموعة بلجيكية أرادت التعرف على المنطقة، وقد حظى بالشهرة منذ أن كان أول الذين بلغوا قمة أعلى جبل فى أمريكا الشمالية «ماك كينلى» وارتفاعها ٦١٨٨مترا. فانتصاره إذن على القطب الشمالى ليس غريبا أو بمستبعد على رجل مثله. خرج إلى هذه الرحلة فى ١٨ مارس عام ١٩٠٨ من طرف جزيرة آكسل هايبرج التى تبعد ثمانمائة وثلاثين كيلو مترا عن القطب مع أربعة من رجال الإسكيمو وستة وعشرين من الكلاب المدربة، وعربتين زاحفتين، أى أقل كثيرا من عدد الرجال والكلاب والزحافات التى اصطحبها بيرى معه.

انهالت عليه حفلات التكريم والمنح والهدايا ومقالات المديح بالصحف والتذكارات الثمينة من كل الوزارات والهيئات والأثرياء. ودُعى إلى حفل تكريم بالقصر الملكى بكوبنهاجن، حيث تلقى من الأمير ولى العهد ميدالية قيمة، وتسابق الشعراء والمشاهير لالتقاط صور معه. وبعد أيام قلائل كان يشكو من كثرة الحفاوة به، وأسئلة الصحافيين التى لا تنتهى، وتريد أن تعرف تفاصيل كل شيء عن الرحلة، وما كان فيها يوما بيوم... لكن أيام الحظ أو السرور قليلة لا تدوم... فقد وصلت برقية من الأمريكى بيرى تفيد بأنه رفع العلم فوق القطب الشمالى يوم السادس من إبريل، إعلانا عن نجاحه فى تحقيق حلمه.

حاول كوك أن يظُهر إعجابا بما حققه بيرى، لكنه فى نفسه شعر بأنهما سيدخلان فى مواجهة، بل فى منافسة قد تتطور إلى عداء. وأخذت أحاديثه وتصريحاته تبدو متناقضة، وفى نظر العارفين من العلماء غامضة مثيرة للشكوك، ومع ذلك ظل فرحا مزهوا بما نال من تكريم وأموال وافرة وميداليات وأوسمة. ولما عاد بيرى وبلغه أن كوك أعلن عن نجاحه فى الوصول إلى القطب، لم يصدق. كيف وهو - بيرى - لم يجد أى أثر لإنسان قبله عند القطب، ولا علامة، أو علم؟!. اتصل بيرى بالرجُلين (الإسكيمو) اللذين صحبا كوك، فعلم منهما أنهم لم يتركوا بحر الشمال المتجمد، ولم يتجهوا نحو القطب. وعلى الفور أرسل بيرى برقية إلى كوبنهاجن يعلن، فيها أن كوك كذاب أشِر!.

واجتمع فريق من العلماء بكوك، يسألونه ويحاورونه بأسلوبهم ومصطلحاتهم ومقاييسهم، وهو يراوغ ويجادل مدعيا - عند محاصرته بالاستفسارات والأسئلة - ضَعف الأجهزة التى معه، أو كثافة الضباب الذى حجب عنه الرؤية، أو جعله يخطئ فى الحسابات الفلكية والتقدير... فزادت شكوكهم، حتى بين أولئك الذين كانوا يؤازرونه والمعجبين به. ظل صامدا لما بدأ يوجَّه إليه من نقد، وأحيانا بتجريح وذم. وظن أنها عاصفة سوف تنقشع، يكفيه أن يطأطئ لهاالرأس، ويتسم بمظهر البساطة والبراءة.

ويشاء القدر - لسوء حظه - أن يكشف النقاب فى هذا الوقت ذاته عن كذب ادعائه بأنه مؤلف قاموس إنجليزى - باتاجونى[1]، وهو فى الحق من عمل «بريدج» أحد رجال البعثة الدينية الإنجليزية، الذى عهد بمخطوطته عندما حضرته الوفاة إلى كوك، وكان يثق به كطبيب، لكن كوك ادعى أنه صاحب القاموس. وهذا فى ذاته أمر جد خطير. وأخذ الناس يشككون فى زعمه بأنه نجح فى الوصول إلى قمة جبل ماك كيفلى. وبالضغط على المرشد الذى

(١) باتاجونيا منطقة فى أقصى أمريكا الجنوبية، تمتد من جبال الأنديز إلى المحيط الأطلنطى، معظمها فى الأرجنتين، وجزء منها فى جنوب شيلى.

صاحبه فى تسلق الجبل، اعترف بأنهما لم يصعدا إلى القمة، وأن د. كوك وضع بنفسه سيناريو هذا الادعاء، وأنه وعد المرشد بمبلغ كبير من المال نظير صمته، ولم يفِ بوعده!. ولم يتراجع كوك أو يهتز، بل زعم أن هذا المرشد باع ضميره للحاقدين عليه من أصدقاء بيرى!، لكنه أصبح فى موقف يدعو إلى الرثاء. انطفأ بريقه، وتتابعت عليه الاتهامات؛ ثم الإهانات، بقدر ما تلقى من حفاوة وإنعامات.

ثم كان الفصل الأخير من المأساة (التى صورتها السينما الأمريكية فى أحد أفلامها) أن المكتشف المزعوم ومؤلف القاموس المنتحل، كوَّن شركة وهمية للبترول جمع لها مساهمات ضخمة من الجمهور، أفضت به إلى قفص الاتهام، ثم الخروج منه لقضاء خمس عشرة سنة فى السجن، وغرامة قدرها اثنا عشر ألف دولار. لكن أفرج عنه بعد قضاء خمس سنوات «لحسن» سلوكه فى السجن! وبعد عشر سنوات دهمه المرض، وأصيب بشلل كامل؛ أعجزه حتى عن الكلام؛ ومات دون أن يشعر به إنسان!.

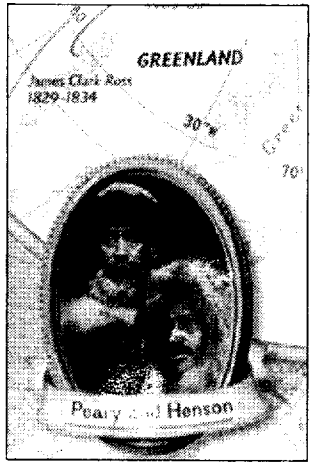

فى مايو ١٩٩٧ نجحت طبيبة الأطفال الفرنسية «كريستين جانان» فى الوصول إلى القطب الشمالى، فى رحلة سيرا على الأقدام، بدون كلاب، أو حيوانات أخرى قطبية لجر العربات الزاحفة، بعد اثنين وستين يوما من بدايتها، قطعت فيها مسافة ألف كيلو متر من سيبيريا، ومعها رفيق طريق مدرَّب، هو الروسى «سيرجى أوجُورود نيكوف»؛ فكانت أول امرأة فى التاريخ تصل إلى القطب الشمالى سيرا على القدمين.. فقط!.

احتفلت كريستين فى الطريق بعيد ميلادها الأربعين، وكانت هدية سيرجى إليها بهذه المناسبة أن خفف حمولة عربتها الزاحفة التى تجرها خلفها بحبال حول وسطها، فحمل عنها عشرة كيلو جرامات من المواد والأطعمة والأجهزة، نقلها إلى عربته الزاحفة التى يجرها خلفه.

تعرضا للهلاك عدة مرات فى مواجهة: الجليد الدائم(متوسط درجة الحرارة ٤٠ تحت الصفر) والرياح والعواصف القطبية القاتلة، والانهيارات الجليدية، وتكسر طبقات الجليد تحت الأقدام فجأة، والدب القطبى الذى فوجئا به مرتين على باب الخيمة أثناء نومهما، وكانت تكفى ضربة واحدة من يده العملاقة لتطيح بالخيمة؛ وتقتلهما فى الحال، لكنه استدار - فى كلتا المرتين - من تلقاء نفسه وانصرف!.

أثبتت كريستين مقدرة فائقة غير عادية على تحمل المشى المستمر طوال تلك المسافة وفى هذه البيئة المهلكة والأجواء القاسية العنيفة، التى تسميها «الجحيم الأبيض»!، ولا ليل على الإطلاق، فالشمس ساطعة (بلا حرارة) طوال اليوم، لكنها فى النهاية نجحت فى تحقيق هدفها ورغبتها الخطرة!.